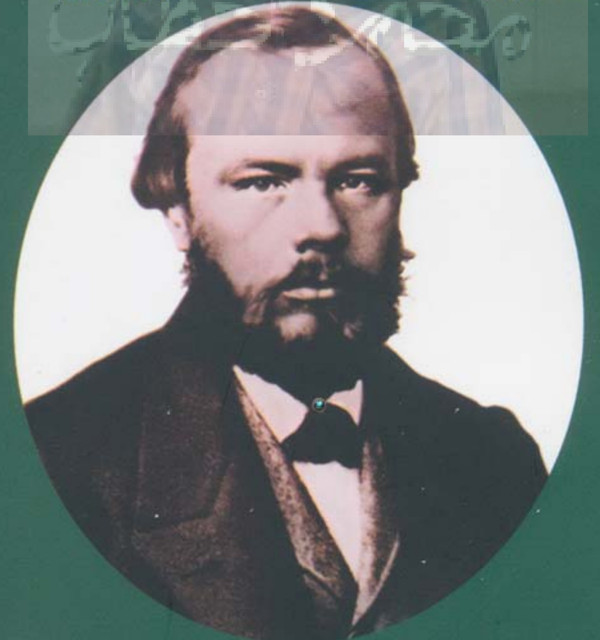
ف. جيليزنياك



# قصص من حياة دوستويفسكي

21.7.2017



ترجمة

د. ماجد علاء الدين    محمد بدرخان



دار علاء الدين

ف. جيليزنياك

قصص

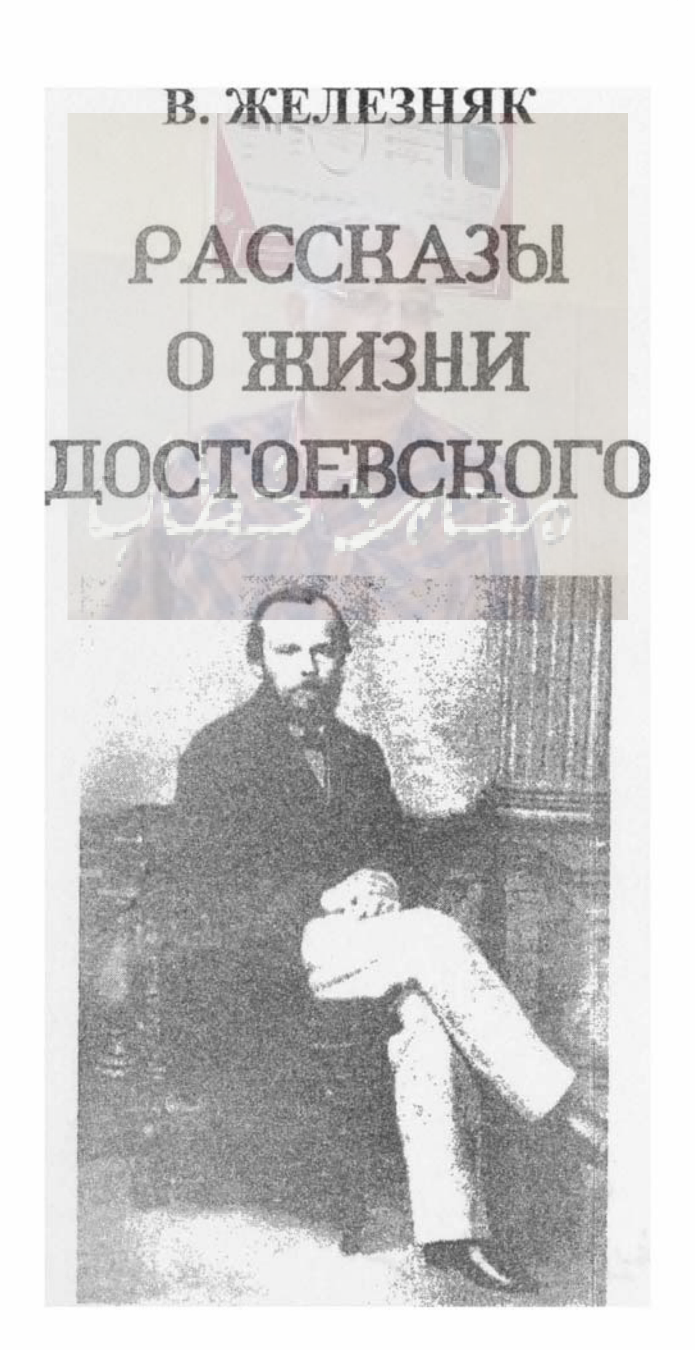
# من حياة دوستويفسكي

ترجمة

د. ماجد علاء الدين محمد بدرخان



منشورات دار علاء الدين



В. ЖЕЛЕЗНЯК
РАССКАЗЫ
О ЖИЗНИ
ДОСТОЕВСКОГО

- قصص من حياة دوستويفسكي.
- تأليف: ف. جيليزنياك.
- ترجمة: د. ماجد علاء الدين – محمد بدرخان.
- الطبعة 2015.




الإدارة والإشراف العام: م. زويا ميخائيلينكو.

دار علاء الدين

للنشر والتوزيع والترجمة

سورية - دمشق

ص. ب: 30598 هاتف: 5617071 فاكس: 5613241

Web: www.zoyaala-addin.com E-mail: ala-addin@mail.sy

ISBN: 978-9933-18-819-1

# المقدمة

أصبح من المتعارف عليه في عالم النقد الأدبي، بل ومن المألوف لكل كاتب أو ناقد أن يذكر اسم دوستويفسكي في مقدمة الكتاب العظماء الذين بحثوا في عالم الإنسان السيكولوجي، وعكسوا الجوانب المتعددة والمتناقضة في طبيعة الفرد، وعلاقته بالمحيط الذي يعيش فيه، ويتفاعل معه. ويندر أن نجد كاتباً عاصر دوستويفسكي، أو جاء بعده في الآداب العالمية، وتمكن أن يغوص في تفكير الإنسان، ويحلّل التناقضات المانالوجية في كيانه كما أبدع فيها دوستويفسكي.

وتتبع عظمة الكاتب فيودور دوستويفسكي وشهرته الواسعة في جميع أنحاء العالم من كونه قد تناول شتّى المواضيع الحياتية، الخاصة منها، والاجتماعية العامة، وناقشها بكل جرأة وشجاعة، دون خوف وقدم رأيه بوضوح لمعاصريه وللإنسانية جمعاء دون مواربة أو ممالأة. وما إعجاب الملايين من الأجيال المتعاقبة بتراثه العظيم، ووقوف المثقفين عامة أمام ذكراه بإجلال واحترام وإكبار إلا شاهداً حياً على ذلك الأثر الكبير، الذي شغله ويشغله دوستويفسكي في قلوب وعقول الناس، بغضّ النظر عن أجناسهم وأعمارهم وقومياتهم.

ولد فيودور دوستويفسكي في أسرة طبيب متواضعة، إذ كان أبوه يعمل في مستشفى خاص بمداواة الناس الفقراء. وبحكم وجوده إلى جانب والده، تعرف فيودور الشاب على مآسي الناس، وما يعانون منه من ظلم وفقر واضطهاد في ظل النظام الديكتاتوري القيصري، كما تعرف إلى العاهات والأمراض النفسية والفيزيولوجية التي يعاني منها الأفراد في المجتمع. أكمل دوستويفسكي دراسته في معهد الهندسة العسكرية

في بطرسبورغ (لينينغراد حالياً) وخدم في صفوف الجيش القيصري زهاء سنة برتبة ضابط. ولكنه لم يُطقْ هذه الحياة القاسية فقدم استقالته، وتفرغ للعمل الأدبي.

بدأ فيودور دوستويفسكي بالكتابة الإبداعية الأدبية منذ أن بلغ السنة الخامسة والعشرين من عمره. وذاع صيته في الأوساط الأدبية بعد صدور الرواية الأولى «الناس الفقراء» عام 1846. ومنذ تلك اللحظة تنبأ النقاد المعروفون له مستقبلاً عظيماً في مجال الأدب، كما أشار النقاد إلى مقدرته الفائقة في تحليل الظواهر المختلفة، والمتعددة الجوانب في تاريخ الثقافة الروسية والعالمية، ومهما اختلف النقاد فيما بنيهم، حول تقويم نتاج فيودور دوستويفسكي، فإنهم كانوا وما زالوا يلتقون ويتفقون ويجمعون على أن هذا الكاتب هو مفكر إنساني فريد من نوعه، ومناضل عنيد ضد أية محاولة تهدف للنيل من العدالة الاجتماعية، وأنه فنان واقعي عظيم...

تأثر فيودور دوستويفسكي بنتاج الكاتب الواقعي المعروف غوغول. وأشار الناقد الروسي المعروف بيلينسكي في معرض تقويمه لرواية «الناس الفقراء» إلى أن الكاتب دوستويفسكي قد تمكن وببراعة من عكس المأساة الاجتماعية «لإنسان في الحضيض» وحلّل تناقضات الواقع والمجتمع والصراع الحاد في العلاقات الاجتماعية، ليس في روسيا فحسب، بل في أوروبا الغربية، حيث أدى التطور البرجوازي الجديد إلى الكثير من الأزمات في المثل والأخلاق الاجتماعية. وفي هذا المجال كتب دوستويفسكي: «إنني وليد القرن التاسع عشر، وأمثل بلحمي ودمي ابن عدم الثقة والشك. وأعرف جيداً، - ولن أتجاهل ذلك حتى الموت - ، مدى التأثير السلبي في كياني، والناجم عن عدم الثقة بالناس من حولي».

وفي النتاجات الأدبية الأخرى التي أعقبت رواية «الناس الفقراء» مثل «المتوءم» 1846، «صاحبة البيت»، «الليالي البيضاء» 1848 وغيرها. نرى أن أبطال هذه الروايات هم أناس يتعذبون نتيجة معاناتهم الشخصية، وأكثر ما يعذبهم هو ذلك الضمير الحي الذي يتسمون به.

وتعتبر مرحلة الأربعينات من القرن التاسع عشر مهمة للغاية بالنسبة لنشاط دوستويفسكي، إذ تقرّب في هذه الآونة من الديمقراطيين الروس، وبشكل أساسي من النقاد بيلينسكي الذي أثر على أفكار الكاتب تأثيراً إيجابياً، ولكن دوستويفسكي لم يغيّر من موقفه السابق كثيراً، إذ بقي ملتزماً بأفكاره الاشتراكية الطوباوية الإصلاحية وأدى تأثره بأفكار المثقفين في تلك الآونة، وخاصة بأفكار جماعة بيتراشيفسكي، الذين آمنوا باستخدام العنف والقوة لقلب النظام القيصري، أدى ذلك على اعتقال فيودور دوستويفسكي في 23 نيسان 1849 بتهمة الاشتراك في مؤامرة لقلب نظام السلطة، وحكم عليه بالإعدام. وعندما سيق إلى ساحة الإعدام بكفنه، غيَّر القيصر حكمه تحت الضغط الاجتماعي، واحتجاج الشعب والشخصيات المعروفة محلياً وعالمياً، وبدَّل الحكم بالأعمال الشاقة لمدة أربع سنوات. ونُفي الكاتب بعيداً عن موطنه. وتجدر الإشارة إلى أن الأحداث الدامية في فرنسا، والبلدان الأوروبية الأخرى في أوساط القرن التاسع عشر قد لعبت دوراً سلبياً في تطور شخصية الكاتب، فأعاد النظر في بعض مواقفه الثورية المعارضة، وتكوّن عند دوستويفسكي انطباع مفاده، أنه من غير الممكن تغيير الظروف القاسية السائدة في روسيا بأعمال عنف، وعن طريق الكفاح الثوري. ولقد انعكست هذه الأفكار في نتاجه المعروف «بيت الموتى»! وعلى أثر هذا، صفح القيصر عن الكاتب وأمر بعودته إلى

بطرسبورغ. ولقد أشار الكاتب إلى هذا التغيير في رسالة لأخيه إذ كتب: «ماذا أحدثت سنوات السجن والنفي بمفاهيمي وعقلي، وقلبي! إنه يصعب علي أن أتحدث إليك عن هذا، والحديث يطول. ولكن هذه السنوات، كانت بمثابة المحيط الذي لا ينضب من التفكير في نفسي، مهما ابتعدت عن الحقيقة المرة التي أعيشها... أنه يصعب الحديث عليَّ عن قصة تغيير تفكيري واعتقادي». وتجلى هذا التغيير في عالم الكاتب الفكري على صفحات رواية «مذكرات من بيت الموتى» 1861-1862.

وتعتبر مرحلة الستينيات والسبعينيات سنوات القمة الإبداعية في نتاج دوستويفسكي، إذ صعد نشاطه إلى ذروة الإبداع الفني، ففي هذه السنوات كتب رواية «الجريمة والعقاب» 1866 و«الأبله» 1868 و«الشياطين» 1871 و«المراهق» 1875 وأخيراً «الإخوة كارامازوف» 1879 -1880.

وفي مجمل هذه الروايات كان دوستويفسكي يتمركز حول فكرة إنسانية أساسية، لخصها الكاتب على الشكل التالي: (إن مستقبل الإنسانية، سيكون متنافياً، بل ومتناقضاً كلياً مع سياسة الحروب والحقد والكراهية بين الشعوب، والمستقبل سيكون للصداقة والسلم والتعاون بين كافة الجماعات الإنسانية، ومع الانسجام الكلي، والتضامن السلمي في كل العالم. والانسجام ليس من منطلق القوة والسيطرة، بل من مبدأ الأخوة، والطموحات الأخوية الصادقة من أجل مستقبل أفضل». ويقول الكاتب والمفكر اللبناني المعروف ميخائيل نعيمه في عرض كلامه عن أدب دوستويفسكي ما يلي: «في روايات دوستويفسكي الرهيبة عايشت المجرمين والمنفيين في مجاهل سيبيريا، والمهانين والمنبوذين في عاصمة روسيا القيصرية، وجميع أصناف البشر،

من أنبل المتطلعين إلى فوق، والناظرين إلى أسفل، وتحسست إيمان دوستويفسكي بالأمة السلافية (التي ينتمي إليها) ورسالتها الإنسانية، وبمستقبل أفضل لروسيا، تتقلّم فيه أظفار الظلم والاستبداد، وتتكسر أنياب الحاجة والمذلة، فيتنفس الشعب بملء رئتيه، وتكون له الثقة بأنه لن يعرق ليهزل وليسمن غيره بنتاج عرقه، ولن يسكن الأكواخ، ويلبس الأسمال لينعم غيره بالقصور ويرفل في الديباج».

في هذا الكتاب «قصص من حياة دوستويفسكي» يتكلم المؤلف عن الأسس التراجيدية في حياة الكاتب في السنوات الأخيرة، ويربط بين هذه السنوات وحصيلة حياة الكاتب من الحكم بالإعدام إلى الأشغال الشاقة إلى المنفى، وحبه المأساوي للسيدة ايسايفا، والأزمة المادية الخانقة التي عانى منها الكاتب، وعمله في الصحف والمجلات. ويروي المؤلف بأسلوب شيق وممتع شتّى القصص الواقعية التي حدثت فعلاً مع الكاتب في نشاطه الإنساني، ويسرد بعضاً من الأزمات التي مرّ بها المؤلف. ويخلص مؤلف هذا الكتاب إلى نتيجة مفادها أن هذه الأزمات كانت أضعف من أن تكسر إرادة الكاتب العملاق، وأن تخمد نور تلك الشعلة الوقادة في نفس الكاتب، وبقى الكاتب حتى آخر حياته وفياً ومخلصاً لمبادئه الأساسية ضد نظم الاضطهاد والقهر والعبودية والتسلط، وضد عالم الرأسمالية الجشع الذي رأى فيه دوستويفسكي سبباً رئيساً في مأساة المظلومين والمستغلين المقهورين. وهكذا، فإن عظمة الكاتب دوستويفسكي غنية عن التعريف، ونتمنى أن ينال هذا الكتاب إعجاب القراء العرب لما فيه من معلومات قيمة، وتترجم لأول مرة إلى العربية.

الناشر

# كلمة المؤلف

تحيط هذه المجموعة من القصص بالأعوام الأخيرة من حياة الكاتب الروسي الكبير فيودور دوستويفسكي. بدأت العمل في هذه المجموعة عام 1946 وأرسلت الفصول الأولى إلى البيت - المتحف لفيودور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي. وفي 25 تشرين أول عام 1946 تلقيت جواباً من ف. س. دوروفاتسكايا - لوبيموفا قالت فيه «لقد خرجت بانطباع جيد من خلال قراءتي للفصول الأولى. لقد أعجبتني. ففيها الحيطة واللباقة في تعاملكم مع المادة المطروحة...».

أصبحت هذه الكلمات بمثابة دافع لمتابعة العمل. وفي 15 شباط عام 1957، أقيمت أمسية أدبية في متحف دوستويفسكي، فقرأت في تلك الأمسية بعضاً من هذه القصص، وقد حازت على إعجاب الحاضرين.

لقد نحوت في كتابي: «قصص من حياة دوستويفسكي» منحيين:

الأول: اتخذت من الوثائق مادة رئيسية في صياغة بعض من هذه القصص.

الثاني: وضعت شخصيات من الخيال وربطتها بسيرة حياة دوستويفسكي.

علماً - أنه من الصعب جداً الإحاطة بأعماق تلك الشخصية المعقدة جداً بمجموعة من القصص، حتى أنه يصعب مجرد تصور ذلك، ولهذا لا نجد في هذه القصص سوى بعض اللحظات المتفرقة من حياة الكاتب الكبير فيودور دوستويفسكي.

# حفلة زفاف

لم يهدأ بال دوستويفسكي في الكاتدرائية: وإذا لم تأت، وإذا رفضت، ويشد من صدر قميصه الناصع اللماع على صدره، ويسأل إشبينيه ستراخوف وأفيركييف: «كيف إذاً يا أصدقاء، لماذا لن تحضر العروس»؟ ويتصنع ابتسامة ويقول: «ألن يحدث كما في الفودفيل[1] أن يفقد الرجل العجوز عروسته في يوم عرسه، أن يخطفها منه أحد الفتيان». وحاول الأصدقاء تهدئته وقال له أفيركييف بصوت حنون: «إن بيسكي بعيدة من هنا، ولابد أن يأتي بها ابن أخيك قريباً». أما ستراخوف فقال برصانة: «أعصابك يا صديقي العزيز، أعصابك فقط». وأشعلوا الشموع في القناديل وخرج صوت المرتل خفيفاً واعظاً من مكانه (الكليروس) وسعل الشماس في المذبح، لقد تحولت كاتدرائية ترويتسكي المدعوة سابقاً باسم كتيبة الحرس إسماعيل بعد إشعال المصابيح فيها إلى قاعة احتفالات، بعد أن كانت تبدو كصالة عرض ضخمة وواسعة للزوار المتأنقين. أما ميلكوف والمعروف بين الأوساط الأدبية بقدرته على السخرية من كل شيء، فقد همس لسيدة تقف قربه: «إن طلب دوستويفسكي المفاجئ بالزواج سينتهي قريباً دون أن نشرب الشمبانيا». فما كان من تلك السيدة إلا أن ضربته بقفازها على كتفه وقالت: «لا تغتب، انظر كم هو مسكين».

ابتعد دوستويفسكي جانباً واستند إلى الجدار البارد مشوش الأفكار: إنها تخدعني، لن تأتي، هذا هو جوابي».

---

[1] الفودفيل Vaudeville: نوع مسرحي هزلي، فيه الكثير من الرقص والغناء، وصل الى روسيا من فرنسا.

لماذا تخيل دوستويفسكي أن آنّا فاسيليفنا كروفين - كروكوفسكايا قد وافقت على الزواج منه، مع أنهم في حقيقة الأمر قد رفضوا طلبه ورأى بعينيه كيف بكت سونيتشكا شقيقة آنّا الصغرى شفقة عليه. كانت كروفين فتاة ذات مزاج خاص، إضافة لرعونتها، لكنها أعجبته.

«تعجبني، تعجبني»، ظل واقفاً قرب الجدار يردد «تعجبني تعجبني».

لكن أن يتزوج من آنّا غريغورفنا... ففيها كثير من الصبيانية. فعمرها لا يتجاوز العشرين عاماً بعد. لكن القضية ليست في الأعوام. لقد ساعدته آنّا غريغورفنا سنيتكنا في إنهاء «اللاعب» واختزلت «الجريمة»، إنها حبوبة هادئة وتحاول أن تظهر بمظهر علية القوم.

نظر حوله فرأى، الضوء، المصابيح والقناديل والحبريات في لباسهن البراق والجمهور الكبير الذي حضر من حبه للفضول... أتوا للسخرية... للسخرية!! تمنى لو يستطيع أن يفر من الكاتدرائية، وأن يستأجر عربة لينطلق بها بسرعة الريح إلى عروسه في شارع كوسترومسكايا. لكن، إذا رفضت أن تأتي معه! لا لن يحتمل ذلك سيتشاجر معهم.

. كان دوستويفسكي يرتجف من أفكاره، من الغموض المحيط به، ومن احتمال أن يخدعوه. أراد أن يستودع حياته أمانة لديها، حياة دوستويفسكي.

أين هي مختارتك الرائعة يا فيودور ميخائيلوفيتش؟!

شاهد دوستويفسكي، - وكأنه يحدق من خلال الضباب - سيدة بصحبة السيد فرسالفين. من هؤلاء؟. ربما كانا من عائلة كاشن أو لا، وفجأة راح يردد كلمات أفيركييف، إن پيسكي بعيدة من هنا، لكن ابن أخي سريع...

أما المستعجل فيديا، أي فيودور ميخائيلوفيتش الأصغر - سائق عربة العروس، فكان يشتم الحوذي التائه في قلبه، إذ كثيراً ما توقفوا وسألوا العابرين عن شارع - كوستروموسكايا، وأخيراً وصلوا. دخل فيديا إلى بيت العروس دون أن يخلع معطفه: - «هل أنت جاهزة يا آنّا غريغوريفنا، أرجوك أن تسرعي، من أجل الله إن عمي ينتظرنا في الكنيسة منذ مدة طويلة.

كانت آنّا غريغوريفنا جالسة تحت إكليلها وفي ثوب زفافها برفله الطويل، محاطة بالأقارب ترتعد خوفاً، بعد أن تأخر موكب العرس مدة سبع ساعات وبدا وجهها نحيفاً للغاية من الهلع في عينيها البراقتين.

- لم يأتوا بالولد بعد. قالت العروس مرتبكة.

وحسب العادات كان لابد من وجود ولد ليحمل أيقونة العروسين الجديدين في يوم زفافهما. وقد اختاروا لهذه المهمة ابن معلم الاختزال كوستيا أولخين.

- حسنٌ، نستغني عنه، - استعجل فيديا. علينا أن نهدي العم. فباركت الأم ابنتها وعانقتها مودعة.

ولم تكن آنّا نيكولايفنا، (كنيتها السابقة ميلنتوبيوس) عاطفية الطبع، كونها تتحدر من أصل سويدي، ولم تقلق على مصير آنّا المعطاة لأرمل، ليس بالغني، بل محاط بالديون، ولم يزعجها كونه أمضى فترة من الزمن في المنفى والأعمال الشاقة (كانت تحترم الشخصيات البارزة - فلقد كان زوجها المتوفّى خادماً في قصر الإمبراطور) لقد أعيد لدوستويفسكي لقبه النبيل ورتبته العسكرية. وهذا يعني أن آنّا وأولادها سيصبحون من سلالة النبلاء. طبعاً كانت آنّا تستطيع أن تقترن بأحد

المحاسبين البسطاء في مخزن الكتب، والذي كان يهتم بها لفترة طويلة، حتى لو كان آمراً متعلماً، فهو لن يصبح في أحسن الأحوال أكثر من مدير أو مالك لأحد مخازن الكتب... بمن ستحاط المرأة الشابة؟ بالمحاسبين والكتب والآمرين والموظفين... إذاً لماذا، ومن أجل أي شيء أنهت آنّا المدرسة بميدالية ذهبية. ولماذا تعلمت الاختزال. وحسب مفهوم آنّا نيكولايفنا فإنه يقع على عاتق الفتاة مسؤولية تأمين دخل معين لمصروفها الشخصي. لكن يبقى الزوج أساس العائلة. وسيقبلها المجتمع الراقي كزوجة للكاتب فيودور دوستويفسكي. أما ما يتعلق بأقرباء دوستويفسكي فستستطيع آنّا الابتعاد عنهم بكل لباقة وأدب. فلها طباع الأم الشديدة المراس، رغم أن والدها كان سلافياً - آه يا حبيبي غريغوري - حقيقياً، وحالماً طيباً. لقد كان مولعاً بالفنون والأدب الروسي، وتوقع مستقبلاً ناجحاً للكاتب دوستويفسكي منذ سنوات بعيدة. لقد ورثت آنّا عن والدها ولعه بالأدب والمسارح... وفي كل الأحوال لم تتصور آنّا نيكولايفنا أن يكون زوج ابنتها محاسباً.

- بماذا تفكرين يا أماه؟ - قاطعت الابنة خيال والدتها.

- عن أحوالي يا أنيتشكا. وتعانقا مرة ثانية.

- أسرعي يا آنّا غريغوريفنا، أنت تؤخرين الجميع.

ولحسن الحظ حضر الولد كوستيا.

نظر الولد كوستيا باهتمام بالغ إلى الحاضرين بعينيه الزرقاوين وبشرته البيضاء. وكان يرتدي قميصاً أحمر من الحرير، وبنطالاً مخملياً، وحذاءً ناصعاً.

ورافقت ماريا غريغوريفنا سفاتكوفسكايا شقيقة آنّا الكبرى العروس إلى العربة، واجتمع سكان المنزل على الدرج لوداع العروس.

وكيف لا يجتمعون فابنة صاحبة البيت سترحل إلى بيتها الجديد. وكان يحترمها جميع سكان البيت لأنها تعتمد على ذاتها. ولم يكن سكان البيت من الأغنياء، فمعظمهم من الشغيلة، ولهذا كانوا يحترمونها لتواضعها وليس «كلعبة أنيقة» بل كإنسان، فقبلوها وتمنوا لها السعادة، ورشوها بحشيش الدينا..

لاحظت آنّا، بعد أن انطلقت العربة، أنهم نسوا إلباس الولد كوستيا معطفه وقبعته من العجلة، فلفته برفلها الطويل. أما فيديا فراح ينظر من خلال نافذة العربة ويفكر في نفسه: «لقد اتخذ العم لنفسه زوجة صغيرة السن، إنها تليق كابنة له».

أما الأم إميليا فيودورفنا فقد ثرثرت كثيراً في أذني فيديا منذ أسبوعين: «سنعيش بعد الآن في حالة من الضيق، فالعم يتزوج من فتاة صغيرة. هذا المصروع، يريد أن يؤسس أسرة لنفسه، الأحرى به أن يعمل لتأمين حياتنا مع أرملة شقيقه الأكبر وابنها». وتنفس فيديا الصعداء فليست المشكلة هنا فقط «إني أتأسف على حالة العروس، ستكون محرجة جداً، سيحاول باشا تسميم حياتها من خلال حقوقه كابن لعمي.. إن فيديا يعرف جيداً طباع باشا: يأمل أليكسندر إيفانوفيتش إيسايف، الذي يعتقد، أن علي واجب «الأب» العجوز أن يكفل ويضمن حياته، بل وأن يقدم له الإمكانيات للتمتع بالحياة. لقد جاء البارحة إلى إميليا فيودورفنا وسخر من والده وشاركه في ذلك كل من كاتيا وساشا بالضحك. وعارضته إميليا فيودورفنا قليلاً وهي تقول: «لا تنغّصوا حياة العم» غير أنها كانت توافق آراء باشا في خوالجها الباطنية، «لكن لماذا يحرم على العم أن يتكلل» - فكر فيديا بذلك - يبدو ذلك ممنوعاً من

وجهة نظر الوالدة، أما من جهة نظري - فما زال عمي شاباً، فهو يروي النكات ويرقص عندما يشرب قليلاً «وبشكل عام كان فيديا بمشاعره نحو عمه إيجابياً.

وأخيراً وصلت العربة إلى كاتدرائية إسماعيل، وخرج الخادم مع كبش الضحية، وساعد العروس في نزولها من العربة، وحضن فيديا الولد كوستيا تحت معطفه، وحمله بحذر على درجات الكاتدرائية.

نسي دوستويفسكي كل ما يحيط به، عندما ساعد عروسته، وقال:

- لقد وصلت، لم تخدعني، آه يا عزيزتي، وخرج للقائها وعلى وجهه ابتسامة عذبة، ولم يلاحظ أن آنّا كانت تخفي الأيقونة تحت طرحة تاجها فأمسك بيدها وشدّ عليها حتى كادت تصرخ «أخيراً وصلت، بعد كل هذا الانتظار الطويل» وارتعش قلب آنّا من الحنان والشفقة عليه. أما ما حدث بعد ذلك فقد جرى كما تجري الأحداث في الحلم. كلمات الشماس بصوته الجهوري، وحديث الراهب الهادئ الرنيم والتراتيل وأغاني الفرح. «طيري طيري يا حمامة» و«فرحة إشعياء».

أجابت العروس على أسئلة الراهب بكلمات تكاد لا تسمع، وأحست بالارتعاش يعم جسدها عندما أحاط الخاتم إصبعها. واتجه العروسان إلى العربة لتنقلهما إلى البيت بعد أن انتهينا من مراسيم التكليل والصلاة السعيدة، مصطحبين معهما الولد كوستيا والأيقونة. وفي البيت كان كل شيء جاهزاً لاستقبالها.

وبارك الشاعر أبولون نيكولافيتش مايكوف ووالدة آنّا العروسين الجديدين.

وبعد ذلك علت ضجة الاحتفال، وارتفعت كؤوس الشمبانيا واعتلى الهتاف «غوركا» [1] من الحاضرين وهم يضحكون فرحين.

كانت زجاجات الشمبانيا كثيرة للغاية، أما الطاولة فاعتمرت بالمأكولات والمزهريات والشوكولا والفواكه والصحون. أما فيودور دوستويفسكي فكان يقدم المأكولات للمدعوين وعلى وجهه أمارات السعادة والغبطة، فبدا جذاباً فرحاً للغاية، إذ كان يجد من الكلمات اللطيفة ليتحدث بها إلى كل من الحاضرين، ودعا فيديا باشا إيسايف جانباً وقال له مستهزئاً، «لقد دعوت ذلك الرجل السعيد، عجوزاً بالأمس، تخطئ في ذلك يا عزيزي».

أما آنّا فشعت فرحاً وتوردت خدودها من فرط سعادتها بزوجها الذي فتن الحاضرين صغاراً وكباراً.

- إنها رائعة - قال أبولون نيكولافيتش مايكوف.

كان قد رآها سابقاً عندما اختزلت «اللاعب»، لكنها كانت في فستان أسود حداداً على وفاة والدها. لقد بدت له آنذاك فتاة عادية من بطرسبورغ، يبدو وكأنهم قد أحضروا فتاة أخرى بدلاً منها. لا - هذا احتيال.

قدم دوستويفسكي عروسه للحاضرين.

- انظروا كم هي فاتنة، إنها إنسان رائع وذات قلب ذهبي.

ودع الحاضرون أصحاب المنزل في الساعة العشرين. واحتضن فيودور ميخائيلوفيتش عروسه آنّا نيكويفنا، عندما أصبحا وحيدين، وأجلسها بالقرب منه.

---

[1] الكلمة الروسية "غوركا"(حد)- مستخدمة في حفلات الزفاف عندما تعلو أصوات الضيوف ليقوم كل من العروسين بتقبيل بعضهما البعض.

- أنيتشكا، يا عزيزتي، إذاً ستكونين لي مدى الحياة.

- طبعاً مدى الحياة. وأخذت يده ومالت بخدها على راحة كفه

- مدى الحياة.

- إن حياتك ما زالت في بدايتها، فأنت وليمنحك الله العمر الطويل، ستعيشين في القرن العشرين، أما أنا؟!

- لا داعي لمثل هذه الأفكار السوداء - قاطعته آنا.

- مضطر لقول ذلك، فأنا سعيد جداً، أنا سعيد جداً، حتى بلا نهاية يا أنيتشكا، وخلف نافذتهم حلّ شهر شباط العاصف من عام 1867.



أ. دوستويفسكايا

# السعادة العائلية

بعد ليلة الزفاف، سارت حياة أسرة دوستويفسكي بشكل مضطرب. فلم يجدا يوماً واحداً، يستطيعان فيه أن يجلسا وحيدين لينظرا في عيني بعضهما بعضاً. أو أن يتبادلا حديثاً ودياً قلبياً. كما كان يحدث أيام الخطوبة. وكان الأقرباء لا ينقطعون أبداً عن الزوجين «الشابين» وأولهم شقيقه المريض نيكولاي، الذي يحتاج لمساعدة شقيقه فيودور ميخائيلوفيتش الدائمة وشقيقته ألكسندرا، وأسرة شقيقه الأكبر وعلى رأسها إميليا فيدروفنا الألمانية المفرطة في آداب السلوك، إضافة لوقوع دوستويفسكي في نوبات الصرع.

بعد أسبوعين حضر متطوع طيب القلب وأخبر أسرة دوستويفسكي عن ظهور مقالة في صحيفة «ابن الوطن» لاذعة قارصة، كتبت على عجل تحت عنوان «زواج الروائي». يقص فيها كاتب المقالة قصة زواج «أحد كتابنا المشهورين» من فتاة يانعة جذابة تعمل في حقل «الاختزال»، وهناك الصورة الآتية، يبدو الأديب الكبير وهو يملي عليها مؤلفه، وقد بدأ يقتلع شعر رأسه (وهذا ما هو واضح من حالة شعره الذي بدا يشكو ويعاني من جراء ذلك) بسبب عدم استطاعته إيجاد خاتمة لروايته، فما كان من الفتاة «المختزلة» إلا أن قدمت له نصيبها، حتى يطور روايته، ويخلق الظروف المواتية لبدء علاقة حب متبادلة بين أبطال الرواية، ...إلخ.

وأحس العروسان بنوع من الكآبة بالرغم من أنهما قد ضحكا من الخبر وبالرغم من معرفتهما أن كاتب المقالة لابد أن يكون ميلكوف وهذا واضح من «لونه المبتذل».

حاولت آنّا أن تقوم بواجبات البيت بنفسها، ولهذا كانت تذهب للتبضع في السوق مع خادمتها، غير أن إميليا فيودورفنا وباشا ايساف أكدا لدوستويفسكي أن السيدة الشابة تبذر المال، ولا يجوز إيداع النقود لديها، كما أكدت إميليا فيودورفنا أن الزوجة الشابة، تبدو أكثر فرحاً في معاشرتها للشبان، وليس معه. فكانت تقول:

- إذا منحتها الحرية يا فيودور ميخائيلوفيتش فستضجر قريباً وبسرعة... دعها تتسلى مع أبناء أخيك وأقربائك. وشعرت آنّا أن الأقرباء «الأحباء» بدؤوا برسم مؤامرة ضدها.

ولم يكن يشفق عليها سوى فيودور ميخائيلوفيتش الأصغر، الطالب في الكونسرفاتور، وذلك ناتج عن طبعه الإبداعي، غير أنه لم يجد أحداً يأخذ بكلامه.

وكان بافل إيسايف فنان في صنع الأعمال الشريرة، لذلك من السهل عليه أن يعكر حياة أقربائه، رغم أنه كان يحب زوج العروس، لكن بطريقته الخاصة، بل كان يفتخر به، لكنه اعتاد العيش على حساب «والده» إضافة لذلك كانت زوجة والده تثير أعصابه لمجرد وجودها.

- أصبحت يتيماً. أخذت مني والدي. - هذا ما كان يردده لأقاربه.

وفي مساء الإثنين من الأسبوع الخامس للصوم الأكبر، كان البيت بزحمته المعهودة، وقدم باشا إحدى «شعوذاته».

فجأة اختفت كافة الأقلام من فوق طاولة الكتابة. وغضب فيودور ميخائيلوفيتش أشد الغضب. فراح يصفق الأبواب متنقلاً من غرفة لأخرى.

وقال باشا لآنّا دون أن يسمعهما أحد:

- ستقتلينه. من دونك يا آنّا غريغوريفنا نستطيع الحفاظ على نظام البيت.

وأحسّت آنّا بالصداع يصيب رأسها فرفضت الذهاب مع زوجها لزيارة آل مايكوف، وغضب دوستويفسكي منها، وذهب وحده.

ارتمت آنّا على سريرها دون أن تبدل ثيابها وأجهشت في البكاء. وأحست بألم يعصر قلبها ورأسها واستمرت الدموع تنهمر من مقلتيها. ولم تلاحظ مرور الزمن، كم مضى من الوقت وهي في هذه الحالة. وكان الظلام يحيط بأرجاء الغرفة وفي الباحة كان شهر آذار الموحل، فقالت آنّا في نفسها «ربما توترت أعصابي وانهارت من تبدل الطقس، من حلول فصل الربيع. وهل سيكون لي ربيع حقاً، لماذا عليَّ أن أشقى. وأنا ما زلت في العشرين من عمري؟ إنه يضجر مني، يحس بالملل معي - أنا لا أعجبه، لا أعجبه».

استلقت طويلاً، لكن لم يغمض لها عين.

تناهى إليها صوت فتح الأبواب عند قدوم زوجها، الذي سأل الخادمة فيدوسيا: «أين السيدة؟»، فهمست له بصوت مسموع: «تبكي في فراشها»، ومن جديد سأل الزوج: «ألا تعرفين السبب؟» فأجابت الخادمة: «لم تقل. إن دموعها تسيل أنهراً».

هذا ما تفضلت به الأرملة الخادمة فيدوسيا، أم الأولاد الصغار أمام دوستويفسكي. وكان دوستويفسكي كثيراً ما يمر إلى المطابع أثناء ساعات عمله في الليل فيواسي كل من لم تغمض عينه بعد، ويغطيه جيداً «إنه إنسان طيب، فهو لا يشبه بافل ألكسندروفيتش، لكنه مرعب عندما يغضب». هذا ما قالته فيدوسيا ذات مرة للسيدة الصغيرة، وهي

تلتف بمنديل أخضر قديم، ذكّر آنّا بالمنديل المتوارث في أسرة مارميلادوف.

وشعرت آنّا بالارتياح لسماعها حديث زوجها مع فيدوسيا، إذاً لم تكن دون أهمية بالنسبة له. وسمعت صرير الباب ودخل دوستويفسكي ثم اقترب من السرير، وانحنى عليها وقبّلها على خدها.

- أنيتشكا، لماذا تبكين يا عزيزتي.

عندئذ لم تستطع آنّا أن تصبر أكثر، وقصّت له عن كل همومها وعذابها وحدثته عن إميليا فيودورفنا وعن باشا إيسايف وعن عزلتها وعذابها. وتبين من خلال حديثها أن الزوج أيضاً يشتاق لتلك الأحاديث الغابرة وأنه يشعر بالضجر من دونها.

وجلس فيودور ميخائيلوفيتش على طرف السرير. واحتضن آنّا بين ذراعيه.

- هل تعلمين يا آنّا أن الحياة صعبة هنا. لنسافر إلى موسكو. يتوجب عليَّ ذلك من أجل بعض الأعمال الأدبية. عليَّ أن أزور «البشير» وسيفرح الأقرباء المسكوفيين بقدومنا. خاصة الشقيقة فيرا وابنتها سونيا، الذكية الموهوبة. هم لطفاء، سعداء وكرماء. سترين وطني ذا الأحجار البيض.

واستطاعت آنّا في الظلام أن ترى وجه زوجها وعينيه اللتين تنظران إليها بكل رقة.

تابع دوستويفسكي:

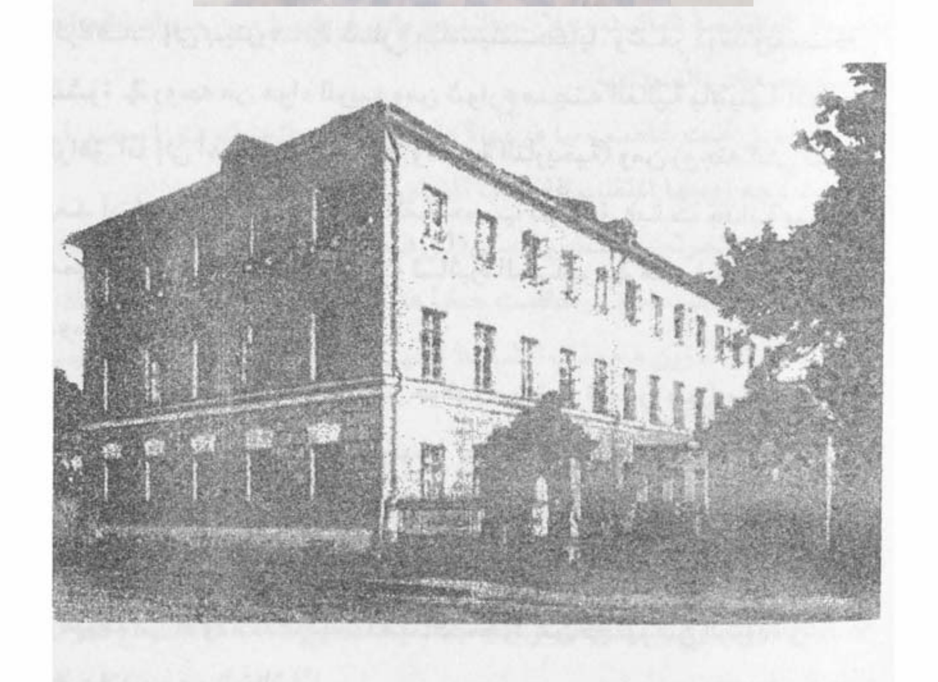
- لا داعي للغضب من باشا، فهو ما يزال شاباً، من عمرك وأنا اعترف أنني مخطئ تجاهه، لم أعره الانتباه الكافي، أما - وصمت

قليلاً-. أما بالنسبة للنقود ، فسنحصل عليها من الممكن أن أستلف من كاتكوف لروايتي الجديدة. نعم لابد أن أكتب رواية جديدة، وهكذا استطيع الحصول على سلفة وسندفع فوائد القرض، وأن نترك بعض النقود لإميليا فيودورفنا ولباشا أيضاً. وبعد موسكو نستطيع أن نسافر إلى الخارج لمدة ثلاثة أشهر.

أنيتشكا، هل أنت موافقة؟

- شكراً يا فيديا - أجابت بصوت مختلج - سأحبك وأحترمك دائماً، دائماً، لكن أرجو أن لا تبتعد عني، لا داعي لذلك.

وسافرا في اليوم التالي إلى موسكو.






ما زال الثلج يغطي شوارع موسكو، لكن المرء يستطيع أن يلاحظ ذوبانه وتساقط قطراته من أعالي السطوح، والعصافير بدأت تشاكس بعضها، وفي الساحات كان يسمع صوت هديل الحمام. أما طلاب المدارس فقد استبدلوا معاطفهم الشتوية بالربيعية. ولم يكن الصيام الأكبر قد انتهى بعد. وانتشرت من المطابخ والحانات رائحة حساء الفطر والسمك المقلي.

نزل دوستويفسكي وزوجته في فندق ديوسّو، وهو أحد فنادق الدرجة الأولى. وبعد أن استراحا من تعب السفر - انطلقا إلى معهد ميجوف حيث آل إيفانوف - فيرا الشقيقة الكبرى وزوجها. وانطلقا على عربة الزلاقات إلى بيتروف في شارع مياسنيتسكايا. وشعر دوستويفسكي بنشوة في روحه من هواء الربيع ومن شوارع مدينته الغالية بأبنيتها المميزة، (رافق آنّا إلى أهم وأعظم المعابد والأبنية التاريخية) ومن زوجته التي توردت بعد أن لبست ثيابها بأناقة فائقة حسب الموضة. فبدت جذابة بشكل مميز. كل هذا كان له تأثيره الخاص في مشاعر وأحاسيس دوستويفسكي.

لم تفصح آنّا عن مشاعر خوفها من زيارة أسرة فيرا ميخائيلوفنا، وتبين فيما بعد، أن مخاوفها لم تكن عبثاً. لقد استقبلتهما فيرا ميخائيلوفنا وزوجها الطبيب ألكسندر بافلوفيتش بكل حفاوة وترحاب، أما سونيا والتي عمرها من عمر آنّا وحبيبة الخال الكاتب وغيرها من الأولاد الأقرباء، فقد أفصحوا عن كثير من البرودة والحذر في علاقتهم مع الخالة آنّا.

غير أن أشد ما أحزنها كان ذلك الملل. لقد بدأ كل ذلك من لعبة «ستوكالكا» المشهورة والمتداولة جداً آنذاك. جلس الزوار في مكتب صاحب البيت منتظرين العشاء. وتجمعوا حول لعبة البريفيرانس الجادة. أما الأولاد فكانوا يمرحون في القاعة. وجلس قرب آنّا، شاب أبدى كثيراً من الاهتمام بها أثناء اللعب، ولم تلاحظ آنّا وهي تثرثر معه بلطافة أن دوستويفسكي قد خرج من المكتب أكثر من مرة وألقى عليها نظرات غيورة. خلف طاولة العشاء جلس الشاب فجأة قرب آنّا أما دوستويفسكي فجلس في مواجهتها عبوساً متجهماً. وعبثاً حاولت آنّا إشراكه في الأحاديث العامة الدائرة. وقال دوستويفسكي فور انتهاء العشاء: «حان وقت ذهابنا» واعتذر بجفاء من أصحاب المنزل وقاد زوجته إلى الفندق. خيَّم الصمت عليهما طوال الطريق ولم تنبس آنّا بكلمة حتى وصلا غرفتهما فقالت وعلائم الذعر بادية عليها من جراء نظرات دوستويفسكي السوداوية.

- هل أنت غاضب يا فيديا؟ وتراجعت إلى الخلف فوراً، بعد أن لاحظت وجه زوجها المتقلب الغاضب المرعب.

- هل تتجرئين وتسخرين مني؟! ورفع قبضة يده مهدداً. أنت امرأة مغناجة بدون قلب. لقد ارتكبت خطأً فادحاً عندما ربطت حياتي بك.. لماذا كنت تتغامزين مع ذلك الشاب؟ أجيبي. طبعاً فهو ولد يافع، وليس عجوزاً أرهقه العمل...

- فيديا - ووضعت راحة كفها على الأخرى. ماذا تقول، أفق، ماذا بك! فأنا أحبك...

- اسكتي آمرك بالسكوت. - نسي دوستويفسكي مكان وجوده، وصرخ بأعلى صوته بحيث يستطيع سماعه جميع نزلاء الفندق، اسكتي...

- فيديا!

وسقطت آنّا على الديوان بعد أن دفعها فيديا بقوة بذارعه وأجهشت في البكاء. فكان لدموعها التأثير المباشر على دوستويفسكي.

- اعذريني.. يا عزيزتي آنّا. وركع دوستويفسكي على ركبتيه قرب الديوان. اعذريني. ظننت.. اعذري غيوراً أحمق.

لم تغف آنّا حتى بزوغ الفجر ولذلك نامت حتى الواحدة ظهراً، وانتظرها دوستويفسكي ليشربا القهوة، فكان حذراً ولطيفاً معها حتى تنسى ثورة الغيرة فيه يوم أمس. وبعد يومين ذهبت آنّا لزيارة شقيق إيفان - الطالب في أكاديمية بيتروفسكيا - رازوموفسكايا. وكان دوستويفسكي مشغولاً في أسرة تحرير «البشير الروسي» وأخبر آنّا أنه سيكون في انتظارها مع شقيق إيفان على الغداء في الساعة الرابعة.

وبعد أن أجلسها في العربة، سجل دوستويفسكي رقم العربة.

- ارجعي معه. طلب منها دوستويفسكي.

واستضاف الطلاب آنّا في قاعات الأكاديمية، وقدموا لها الشاي، وتناقشوا معها حول الآداب وعن أدب دوستويفسكي وخاصة روايته «الجريمة والعقاب» ومضى الوقت مسرعاً دون أن تلاحظ آنّا ذلك. فغادرت العربة الأكاديمية بعد أن انتظرت طويلاً. وتوجب عليها أن تعود سيراً على الأقدام حتى الزقاق، حيث تقع محطة العربات وهكذا لم تعد آنّا إلى الفندق مع شقيق إيفان إلا في منتصف السابعة مساء.

لم تجد آنّا زوجها في الفندق وأخبرها الخدم، أن زوجها يقف على تقاطع الطريق منذ ثلاث ساعات ينظر إلى العربات المارة. فخرجت آنّا مسرعة إليه وأمسكت بيده وقادته إلى الفندق كطفل صغير.

وتناولوا الغداء سوية، وقدم الشقيق اعتذاره للتأخير اللامقصود، وعندما غادرهما سألت آنّا زوجها.

- فيديا، لربما ظننت أنني قد هربت مع أحد الطلاب؟

- ماذا تقولين، ماذا بك؟ وأدار نظراته الحائرة جانباً.

وقص الطبيب ألكسندر بافلوفيتش في إحدى الأمسيات لآنّا عن الاضطرابات الفصلية، التي عانت منها ماريا دميتريفنا زوجة دوستويفسكي الأولى وذلك قبل وفاتها.

- كانت امرأة خيالية، ذات طباع صعبة، متحمسة، ملتهبة للغاية، كنا نخاف أن نترك باشا معها. فكان الولد يقضي عطلته المدرسية عندنا. أني أرثي لحالتها كطبيب. تصوري، تلك المرأة المسكينة، مصابة بداء السل في أعلى مراحله، إضافة لاضطراباتها العقلية، لم يكن أمرها سهلاً على فيودور ميخائيلوفيتش. فكثيراً ما كانت تقف أمام صورته وتصيح بأعلى صوتها:

«يا لك من شقي، وسكّير وخريج الأعمال الشاقة»

- هل كانت تحب زوجها الأول؟ - سألت آنّا.

- لا أعرف، غير أن الخادمة نقلت، أنها كانت توجه لزوجها كثيراً من الكلمات الشائنة. لكن أرجوك يا آنّا غريغوريفنا ألا تخبري زوجك بحديثنا هذا.

- طبعاً، لا. فلماذا أضعه أمام ذكرى ماريا دميتريفنا؟

☆☆☆

زار دوستويفسكي وزوجته الكنائس والمعابد على جبال العصافير (ڤوروبيوڤي) والجناح الحربي في قصر الكرملن. وزارا مقبرة

لازاريفسكوي، وذهبا إلى قبر والدة دوستويفسكي. ولكي تتعرف آنا على المطعم المسكوفي أخذها دوستويفسكي إلى مطعم تيستوفا الشهير حيث شاهدت آنا الخدم في لباسهم البيض المطرز وهم يقدمون أشهى وأجود المأكولات. وحالف الحظ دوستويفسكي في أسرة التحرير ووافق كاتكوف على منحه سلفة قيمتها ألف روبل. وفي السبت، عشية أحد الشعانين، غادر دوستويفسكي وزوجته موسكو عائدين إلى بطرسبورغ.



م. كاتكوف

# في المهجر

لم يبتسم الحظ لدوستويفسكي وزوجته في بطرسبورغ، إذ توجب عليهما، بعد العودة من موسكو، أن يعتادا على المخاصمة والمشاكسة السابقة مع إميليا فيودورفنا وبافل ايسايف. لقد جنّ جنون الأقارب عند سماعهم عن رغبة دوستويفسكي وزوجته بالسفر إلى الخارج.

وكما يتساقط المطر من سماء بطرسبورغ، تساقطت طلبات الأقرباء في ضرورة تأمين حياة أسرة ميخائيل ونيكولاي، وضرورة تقديم النقود لبافل إيسايف وضرورة دفع الفوائد المترتبة من الديون.

- أنت مسؤول أمام ذكرى شقيقك الأكبر يا فيودور ميخائيلوفيتش، صرحت بذلك إميليا فيودورفنا بحماسة مؤثرة - والأفضل أن تستأجر منزلاً قرب بطرسبورغ لتصطاف به الأسرة بأجمعها من أن تلبي نزوات زوجتك الشابة. أما أنا - تابعت إميليا فيودورفنا بعد أن تصنعت ابتسامة على وجهها - فسأقوم بكافة أعمال المنزل، سأعتق الحبيبة آنيا من كافة أعمال وتدابير البيت.

عند ذاك قدمت والدة آنّا نصيحة عملية لتنقذ الموقف وقالت: عندما تمس القضية مصير حياة وسعادة الأسرة من الواجب التضحية والمغامرة بالأملاك كافة.

وهكذا تقرر بيع أغراض صداق (جهاز) العروس آنّا وهذا يعني أشياء ذهبية وفضية وطقم من الأواني المطبخية الفاخرة الثمن وموبيليا جديدة وكثير من الحاجيات الضرورية، إضافة لأوراق اليانصيب الرابحة.

وفرح دوستويفسكي أشد الفرح لنصيحة والدة آنّا التي أنقذت موقفهما إذ قال:

- آه يا عزيزتي آنيا، كم أنا سعيد بنصيحة وتدبير والدتك. أنا شاكر لها من كل قلبي.

وبعد أن أرضى دوستويفسكي الدائنين بالفوائد، ووزع النقود على الأقرباء، سافر وزوجته إلى ساكسونيا في 14 نيسان، وفي حوزته بعض النقود للأيام الأولى.

اعتزم دوستويفسكي وزوجته الإقامة في الخارج مدة ثلاثة أشهر، غير أنهما أقاما هناك مدة أربع سنوات، تلك السنوات الشهيرة في حياة أوروبا. إذ كانت تهدر كلمات محرر إيطاليا جوزيف غاريبالدي، وكانت قبضة بروسيا الفولاذية تخيِّم فوق أوروبا. وفي فرنسا، نمت مشاعر عدم الارتياح لسياسة نابليون الثالث المقامرة - وبدأت الحرب البروسية - الفرنسية. وانعقد الكونغرس الأول لعصبة السلام والحرية في جنيف، وعظم نشاط الأممية بقيادة كارل ماركس. وأطلق المهاجر الروسي بيريزوفسكي النار على ألكسندر الثاني، وكشف النقاب في روسيا عن أشياء لا تصدق. ونهضت كومونة باريس البطلة وسقطت على المتاريس مطعونة بحراب البورجوازية العارية.

خلال هذه السنوات كتب دوستويفسكي رواية «الأبله» إضافة لكتابه مقالة عن بيلينسكي، ورواية «الزوج الخالد» وبدأ بكتابة رواية «الشياطين».

قاربت سنوات التجوال الزوجين إلى بعضهما بعضاً. وقد عاشا أولاً في مدينة درسدن ثم انتقلا إلى بادين - بادين. وهذه الـ بادين - بادين جعلت من دوستويفسكي عبداً لألعاب القمار خلال خمسة أسابيع، ونتج عن ذلك أن رهن حاجياته وفساتين زوجته الملبوسة، وكتب رسائل اعتذار للأصدقاء، بعد أن خسر الأموال التي حصل عليها.

اعترف فيودور دوستويفسكي لزوجته بخسارته، وركع أمامها وقبل يديها واعداً أنه سيصلح هذا الأمر. عندئذٍ جاءت الأيام السعيدة مثل الذكرى. حتى أنهما قطعا ثمانية فراسخ سيراً على الأقدام على درب، عبر الغابات ووصلا قلعة أولت إبرشتاين. وهناك تناولا طعامهما، وتحدثا عن الفنون وعن لوحات متحف درسدن. وتذكّرا كل لوحة قد أعجبتهما في المتحف. كان دوستويفسكي من عشاق لوحات كلود لورّين بأنهارها وبحيراتها وجسورها المقنطرة، بمناظرها الطبيعية الجميلة المنبعثة من الميثولوجيا أو من المواضيع التوراتية. واسترعت انتباهه بشكل خاص لوحة «الخليج البحري» - المرسومة بلون فضي واضح، وهناك رسمت آسيس وغالاتيا.

وقد دعى دوستويفسكي تلك اللوحة بـ «العصر الذهبي - حلم الإنسان» ومن الطبيعي أن يقدر لوحة «مادونا» لرفائيل كدليل على النبوغ والعبقرية البشرية، فقد كان يجلس طويلاً أمام اللوحة متضرعاً، وقد تأججت مشاعره. وكثيراً ما تراءى لآنّا أن «مادونا» والطفل على يدها قادمة للقائها.

كانت آنّا سعيدة لمغادرتها بادين - بادين حتى ولو إلى آخر الدنيا.

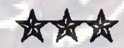
أخيراً حزما أمتعتهما بعد أن استلما مئة روبل من إيفان شقيق آنّا وسافرا إلى جنيف. وفي الطريق نزلا في محطة انتقالية تدعى «أوس» فقرر دوستويفسكي البقاء ليوم واحد في مدينة بازل القوطية كي يشاهد لوحات المتحف المحلي. فقد كان مهتماً برؤية إحدى لوحات غولبين الثمانية التي تدعى «هلع المسيحيين» واللوحة عبارة عن منظر مفزع لجسد المسيح الممدد بخلاف العادة، وهنا يتطرق الفنان إلى أنفاسه العفنة

المنحلة، ويصور وجهه متورماً وآثار الضرب عالقة عليه، ووجهه مغطى بدماء جروحه، وشعره المرتد إلى الخلف وفمه المتهدل.

لم تستطع آنّا النظر إلى اللوحة فانتقلت على بقية قاعات المتحف، بينما بقي دوستويفسكي أمام اللوحة متأملاً. وعندما عادت آنّا بعد عشرين دقيقة وجدته على وضعه في مكانه، لم يتزحزح وفي حالة رعب مزلزلة.

وبعد أن خرجا قال دوستويفسكي لزوجته آنّا.

- يمكن للمرء أن يفقد إيمانه من هذه اللوحة.



استأجر دوستويفسكي وزوجته في جنيف غرفة عند عجوزين في شارع وليام تيل. وهنا ظهرت الفكرة الأولى لرواية «الأبله». فمن خلال قراءة دوستويفسكي لقصة الكاشيريين، وأفعال موظفي أرمتسكي في صحيفة «الصوت» الذين عذبوا أولادهم ذلك العذاب، الذي دفع بالفتاة أولغا ذات الخمسة عشر عاماً لمحاولة إضرام النار في منزل السيد.

قرر دوستويفسكي أن يجعل من أولغا بطلة لروايته لكنه غيَّر تلك البداية فيما بعد.

وكانت آنّا تراقب بخوف كيف كان دوستويفسكي يبحث عن الحل الأمثل الأصح. لقد كتب دوستويفسكي عن شكوكه لكل من مايكوف وابن شقيقته الغالية صوفيا ألكسندروفنا إيفانوفا. وطلب من أصدقائه بإلحاح أن يزودوه بتفاصيل الجناية، وخاصة تفاصيل جريمة التاجر مازورين الذي قام بقتل الصائغ كالميكوف.

- لا يجوز الاستهانة بالملاحظات الوثائقية. - ردَّد دوستويفسكي ذلك مراراً على مسمع من زوجته، - لا يجوز فعل ذلك أبداً يا آنيتشكا.

في الصحف، كانت تنعكس صورة الحياة اليومية الآنية المرعبة حيث يسيطر الجشع والركض وراء الملذات. وبالمال يصبح حتى الأحمق عملاقاً يا آنيا...

كان الكاتب قلقاً للغاية، وخاصة عندما لاحظ أن مخطوطته الأولى لرواية «الأبله» لم تكن كما أراد وكان يقلقه عندما تعتل زوجته، وحتى عندما يتبدل الطقس.

- أوه هبت الريح وهطل المطر من جديد - كان يهمس والإرهاق باد عليه -، وتأخذ آنّا تهدئ من أعصابه قائلة:

- لن يدوم المطر إلى الأبد.

- لا أعرف، لا أعرف، لكنني أشعر بالامتعاض والثقل على صدري. وفي شهر أيلول كان دوستويفسكي وزوجته شاهدين لزيارة غاريبالدي إلى جنيف لحضور كونغرس عصبة السلام والحرية، وأقام مجلس المدينة حفلاً تكريمياً لاستقبال غاريبالدي بمشاركة فرقة الموسيقا، ورفعت الأعلام عالياً وباقات الورد، تحيِّي زعيم إيطاليا الفتيّة الذي وقف يرد التحيات ويلوح بقبضته «الغاريبالدية الشهيرة».

وعندما لاحظ دوستويفسكي عدم تمكنه من كتابة رواية «الأبله» عاد للعب القمار «الروليت» من جديد في مدينة ساكس، إذ كان يسافر إليها من جنيف، ولمدة خمس ساعات. وربح في إحدى المرات ألفاً وثلاثمئة فرنك وخسرها في الحال كالعادة، أما آنّا فلم تنهره عن ذلك، كونها تدرك جيداً أنه بحاجة ماسة لنفض الغبار عنه، وليروح عن نفسه

من عناء التوتر الإبداعي. آملة أن دوستويفسكي لابد من أن يتغلب بنفسه على هذا المرض والفوضى».

وهذا ما حصل فعلاً، إذ أقلع دوستويفسكي عن لعبة «الروليت» بعد عام، ولم يعد إليها أبداً.

وفي نهاية شهر كانون أول أحرق دوستويفسكي النسخة الأولى لروايته «الأبله» رغم معارضة زوجته آنّا.

- لا تحاولي إقناعي. لا أستطيع أن أدعها، مخجلة، ضعيفة، كان يجب أن تكتب بشكل آخر، يجب إحراقها، ومن جديد بدأ ذلك العذاب الإبداعي الذي خلق الرواية الخالدة العبقري الروسي.

وزعت في ذلك الوقت على كافة نقاط الحدود والجمارك الإمبراطورية الروسية تعليمات الشعبة الثالثة بشكل «سري جداً»، وأمر المستشار شخصياً القاضي بـ «إيقاف الملازم المسرح فيودور دوستويفسكي عند عودته إلى روسيا، وتفتيشه تفتيشاً دقيقاً، وإذا وجد في حوزته شيء من الممنوعات، فيجب تسليمه للمسؤولين المحليين ليتم تسليمه فوراً إلى الشعبة «الثالثة». وعلم دوستويفسكي بذلك من خلال رسالة تلقاها من مجهول، ولم يكن الزوجان في ذلك الوقت على علم بأي شيء، وكانت آنّا سعيدة بتطور مخطوطة الرواية بصورة ناجحة. لقد أحسّت آنّا أن دوستويفسكي يكتب عملاً رائعاً، وافتخرت بنصيب حياتها، مع أن دوستويفسكي لم يكن مقتنعاً بنفسه أو راضياً عن عمله فكان يردد دائماً «الفكرة أعمق مما أكتب» ومع اقتراب رأس السنة، أي في الرابع والعشرين من كانون أول أرسل دوستويفسكي الفصول الأولى من روايته «الأبله» لأسرة تحرير «البشير الروسي». وفي الواحد والثلاثين من نفس الشهر، قامت آنّا بتحضير مفاجأة سارة لزوجها مساءً ففي الساعة

العاشرة والنصف «الثانية عشرة حسب توقيت موسكو» وضعت آنّا على طاولة الشاي ربع زجاجة شمبانيا. وحسب كلام دوستويفسكي نفسه «كأسيهما مع بعضهما في خلوتهما، وحدهما في وحدتهما» وتابع دوستويفسكي العمل في رواية «الأبله» أما آنّا فكانت تقوم باختزال الفصل تلو الآخر.

وكانت الشقة الواقعة في الشارع الذي يحمل اسم وليام تيل، دافئة مشعة بأنوارها في كل الأمسيات. لقد عاش دوستويفسكي أسعد وأحزن لحظات حياته. فقد أنجبت آنّا طفلتها البكر في شهر شباط وفقداها في الثاني من شهر أيار، ولاحظت الزوجة أن دوستويفسكي أصبح أباً حنوناً جداً جداً، وحزن بشكل مأساوي لفقدان طفلته. وفي هذه المدينة نحل دوستويفسكي حتى بدا كإنسان آخر.

كانت آنّا الأم الشابة المفجوعة بموت طفلتها البكر تبكي طوال الوقت، أما دوستويفسكي فكان يجلس على الأريكة عبوساً، حزيناً، متألماً.

- لن أنساها أبداً. - كان يهمس دوستويفسكي - ، سمعا قرع الباب. ودخلت خادمة صاحبة البيت.

- إن السيد ينزعج جداً من صوت بكاء المدام، لتكف عن البكاء، فهي لا تدع السادة ينامون بارتياح.

- ها هي متطوعة أخرى في خدمة البورجوازية.

غير أن تعارفهم بنيكولاي بلاتونوفيتش أغاريف، كان بمثابة مواساة لهما، إذ كان أغاريف قريب من روح آنّا، ولم يكن من أنصار رأي غيرتسن السلبي حول رأي دوستويفسكي. فعندما كان يسهر معهم كان يقول لآنّا:

- أنا أقف بجانبكم! ويفرح دوستويفسكي من قوله.

وكان أغاريف مثل دوستويفسكي يعاني من نوبات المرض. وفي إحدى الليالي سقط في ساقية وهو عائد إلى منزله في ضواحي المدينة، وبقي هناك حتى الصباح فطعنه البرد، لهذا قرر الأطباء إرساله إلى إيطاليا، وقد أسف دوستويفسكي لفراقه.

أخبرني، - إنه إنسان رائع يا آنيا! - قال دوستويفسكي لزوجته، ثم أضاف ولديه أشعار جميلة، أشعار حقيقية طموحة، اسمعي وراح يقرأ لها بصوت مسموع.

وجمتُ في العهد القديم

تعطشت، تنهَدت،

حتى يأتني القضاء والقدر

بالحياة، بالألم وبموت النبي.

صمت دوستويفسكي ثم أضاف قائلاً: هذه أشعار معذبة وكاتبها يملك الحق في كتابتها.

☆☆☆

ومن جنيف رحلت أسرة دوستويفسكي إلى مدينة فيفي السويسرية ومن هناك قرّرا التوجه إلى إيطاليا. وكان دوستويفسكي يعاني من أمر الجندرما التي تقرأ الرسائل الآتية من الخارج، ويعاني مما يكتبون عنه في الصحف والكتب من شائعات، كما في كتاب غريم. ولم تستطع آنّا أن تفهم سبب معاكسة القدر لهذا الإنسان الطيب المتحمس بشكل نادر لهذا الإنسان الكاتب. فهو إذا مرّ بالقرب من شحاذ، فلن يستطيع العبور دون أن يعطي الشحاذ شيئاً، وكان المشهد يبدأ على الشكل التالي:

- آنيا أعطني بعض القطع النقدية الصغيرة. - هكذا يبدأ طلبه.

- لكنك لا تملك ما يكفي للجميع. - تجيب آنّا.

عندئذٍ كان دوستويفسكي يمسك آنّا من مرفقها ويقول بإلحاح:

- أرجوك من أجل الله، من فضلك يا آنيا. وكانت تجيبه:

- فيديا، أنت تعرف أننا لا نملك سنتيماً واحداً في البيت.

- سأحصل على المال، آنيا أرجوك، سيرسلون لنا.

وفي كل مرة كانت شفتاه ترتجف ويظهر الألم على تجاعيد جبينه، ولم تستطع آنّا مقاومته.

وسرعان ما ينتهي المشهد وتعود النضارة على وجهه بعد أن يمنح الشحاذ بعض القطع النقدية.

☆☆☆

ميلانو.. فلورنسا.. بولونيا.. البندقية... زيارات للمتاحف والمعابد لمشاهدة الأعمال الفنية فيها. إن أشد ما أدهش دوستويفسكي، تلك الأبواب البرونزية من صنع **لورينزو غيبيرتي** في معمودية القديس يوحنا المعمدان في فلورنسا. واستمتع بمشاهدة لوحات الفنانين الإيطاليين وخاصة «مادونا آنسيدي» لرفائيل، والتمثال اليوناني القديم نيكا- إلهة النصر.

كانت آنّا في انتظار ولادتها الثانية، ولهذا ضاعف دوستويفسكي من حنانه وحبه لها. وقد كتب لأحد أصدقائه في بطرسبورغ «إنني أنتظر بقلق وذعر وأمل» وغالباً ما كان يتذكر فاجعته بطفلته الأولى.

ومن جديد أصابه الغم والكآبة من الديون المترتبة عليه في بطرسبورغ، وقلق كثيراً عندما سمع نبأ اعتزام باشا إيسايف على الزواج. إضافة لقلق وعذاب الإبداع الدائم.

وأنهى دوستويفسكي روايته «الأبله» وبدأ يفكر بـ «الإلحاد» وكتب لمجلة «الفجر» «الزواج الخالد»، وكان يقول لآنّا:

- من الضروري أن نعود إلى روسيا. «يجب أن نعود إلى روسيا في الحال. لقد فقدت إمكانية الكتابة، فأنا لا أملك بين يدي المادة الضرورية للكتابة، أعني الواقع الروسي، الناس الروس» - هذا ما كتبه لأصدقائه، ونصحته آنّا بالانتقال أولاً إلى براغ، وقالت:

- هناك يعيش السلافيون وهم قريبون من روسيا. ولديهم ثقافة وحضارة غنية.

لكن لم يتم ذلك كما توهمت آنّا، فلم يجدا هناك غرفاً مفروشة للإيجار، وكان من الصعب عليهما تسديد إيجار غرفة في الفندق. ولهذا كان من الضروري مغادرة تلك المدينة التي أدهشتهم بآثارها وحضارتها.

فكان دوستويفسكي يقف في ساحة المدينة مسحوراً بفكرة المعلم الماهر الذي يجبر الديك على الصياح والدوران بين الطاولات.

- مدينة مدهشة- قال دوستويفسكي لزوجته - أستطيع البقاء فيها شهوراً طويلة بكل ارتياح. آه يا آنيا، آنيا.

وبكل أسف ودع دوستويفسكي وزوجته براغ الذهبية ورحلا إلى درسدن.

☆☆☆

وفي درسدن كانت المتاحف والمكاتب والطقس المقبول والغرف المفروشة، الرخيصة نسبياً. وفيها ولدت طفلتهما الثانية لوبا التي فتنت دوستويفسكي ولقبها بالحسناء، وقد لاحظت آنّا أن دوستويفسكي كان يرى فيها نسخة منقوشة عن صورته الشخصية.

وفي درسدن أيضاً اشتعلت نار الشوق والحنان عند آنّا. وأصبحت لا تعجب بكل ما يحيط بها، وتطالبه بالعودة إلى الوطن وتقنعه بضرورة ذلك، وعدم الخوف من الديون، وكانت تؤكد له أن لديها القوة والمقدرة الكافية لمساعدته لحل كل الصعاب. ووصلت إلى درسدن والدة آنّا وأخوها الطالب إيفان (وقد أغلقت أكاديمية الزراعة أبوابها احتجاجاً على أسلوب معالجة قضية مقتل الطالب إيفان) واشتد الشوق لديها بالعودة إلى روسيا، وهذا ما قرراه أخيراً.

ظل دوستويفسكي وحده مدة يومين يمحّص في مخطوطاته قبل سفرهم.

- آنيا - دعا زوجته، التي دخلت ورأته جالساً على الكرسي غاضباً وقد ظهرت عليه كدمات سوداء، تحت عينيه.

- خذي هذه الأوراق. وأعطاها عدة أطباق - مخطوطات رواية «الأبله» «الزوج الخالد» ونسخة من «الشياطين».

- لماذا؟ - سألت آنّا. وأدار دوستويفسكي رأسه جانباً ليخفي قلقه.

- أحرقيها. على كل حال سيفتشوننا في فيرجبلوفو... أحرقيها. ولم تستطع آنّا سوى إنقاذ بضعة فصول من الرواية، هذه الفصول التي نقلتها والدتها، التي عادت إلى روسيا بعدهم.

☆☆☆

وهكذا وداعاً يا أوروبا. محطة القطارات في درسدن... ثم برلين وأخيراً فيرجبلوفو. وهنا أخرجوا كل ما احتوته حقائب دوستويفسكي ووضعوا الأوراق والكتب جانباً، وكانوا قد سمحوا لبقية المسافرين بالذهاب إلى المحطة حيث كان في انتظارهم قطار بطرسبورغ.

أما في القاعة فكان رجال الجمارك يتفحصون كل ورقة، كل صفحة كتاب.

وشعرت آنّا بالخوف من تعابير وجه دوستويفسكي القاسية الغامضة وبدا وكأنه تحجر في مكانه، وهنا صرخت الطفلة الجالسة على مقعد خشبي قاس ودون أن تكف عن الزعيق، راحت تطالب أمها بالطعام.

- ماما أعطني خبزاً. وسكتت للحظة ثم قالت ثانية:

- ماما أعطني خبزاً. وتجهم الموظفون ورجال الجمارك.

- أسكتي ابنتك. - طلبوا من آنّا.

- لا أستطيع فأنا مريضة والطفلة لم تُكمل السنة الثانية بعد، لقد تعبت وجاعت - أجابت آنّا مستاءة من رجال الجمارك. وزعقت الطفلة من جديد.

- ماما أعطني خبزاً.

- دعوهم يمرون، - صاح رئيسهم الذي يرتدي بزته الرسمية المطرزة بخيوط فضية - ستثقب هذه الطفلة غشاء أذني.

- طبعاً يا سيدي. يبدو أنهم لا يحملون شيئاً ممنوعاً. - أسرع رجال الجمارك في الإجابة، ثم توجهوا بحديثهم إلى دوستويفسكي..

- أيها السيد، خذ زوجتك وطفلتك وأغراضك، واذهب. ولم يحتج دوستويفسكي لشيء آخر، فقد أخذ الحمّال الحقائب، بينما حمل دوستويفسكي طفلته بين ذراعيه وانطلقوا.

وها هم الآن في العربة المقطورة، تحيط بهم اللغة الروسية، أما خلف النافذة فكانت أشجار البتولا الروسية الأولى والمناظر المعروفة تمتد أمام أعينهم.





في الثامن من شهر تموز عام 1878 يوم وصول دوستويفسكي إلى بطرسبورغ، كان الجو حاراً ومليئاً بالغبار وكانت العربات تقرقع على الطرقات، وهي تجوب المدينة والدخان الأسود يتصاعد من المعامل على السماء الباهتة، وضرب الحراس المدنيون طوقاً حول بناء المحكمة التي تجمهر الناس في قاعاتها، أصدرت حكمها على المشتركين مع نيتشايف والمختفين خارج الوطن. «وكان قد تم كشف النقاب في أمكنة عديدة من الإمبراطورية الروسية عن مؤامرة تهدف إلى الإطاحة بحكومة الدولة القائمة وعن مقتل الطالب إيفانوف، وحكم على نيتشايف وأوسبينسكي وكوزنيتسوف وبريجوف ونيكولايف بالأعمال الشاقة لمدد مختلفة، وقرأ دوستويفسكي الحكم الصادر في «البشير الروسي».

لم يكن لديهم منزل أو مال، أما الموبيليا وكافة أغراض المنزل فكانت قيد الرهن.

وكانت آنّا تنتظر مولودها الثالث. أما بافل ايسايف فقد باع مكتبة دوستويفسكي الشخصية. وأجّل دوستويفسكي سفره إلى موسكو لأخذ استحقاقه من «البشير الروسي» قبل ولادة آنّا.

وقال دوستويفسكي لآنّا: إذا ولدت طفلاً قبل الساعة الثانية عشرة ليلاً فسندعوه فلاديمير احتفالاً بعيد الأمير فلاديمير المحتفل به في ذلك اليوم. لكن آنّا ولدت في صباح اليوم التالي أي في السادس عشر من تموز فسموا الولد فيودور.

وحضر أقرباء دوستويفسكي إلى الشقة التي استأجرها في شارع

كاتيرينا. لكنهم وجدوا أن آنّا قد تحولت من طفلة مرحة إلى امرأة شابة نشطة تقف بصلابة لصون مصالح أسرتها.

وكانت الأحوال المادية لأقرباء دوستويفسكي قد تحسنت خلال السنوات الأربع الفائتة، ففيودور ميخائيلوفيتش الأصغر يعمل معلماً للموسيقا، وابن أخيه الآخر ميخائيل يعمل موظفاً في البنك، وبقي باشا إيسايف فقط، الذي تزوج من فتاة حسناء يطالب الوالد بالنقود وكان على دوستويفسكي أن يعين شقيقه نيكولاي أكثر من البقية، أما الأخ أندريه - الذي كان يقدر أهمية دوستويفسكي - فكان يعيش مستقلاً عن العائلة.

ووجدت آنّا في شارع سيربوخوفسكيا - شقة متواضعة من أربع غرف وفرشتها بموبيليا تجارية مستعملة أخذتها بالتقسيط من فناء غوستين.

- فيديا - خاطبت آنّا زوجها بعد أن انتقلوا إلى شقتهم الجديدة - أتعرف، لا أريد أن أقتصد في تلك الحاجيات الضرورية للكتابة، أما ما يتعلق ببقية الأشياء فعلينا أن نقتصد بها، حتى نسدد ما يترتب علينا من ديون.

- أنت سيدة البيت وتعرفين أكثر مني - أجاب دوستويفسكي.

وطار الدائنون إلى دوستويفسكي كالجراد، بعدما قرؤوا نبأ وصوله في الصحف، وكان فيما بينهم تاجر ألماني، قرر أن يزجّ دوستويفسكي في السجن لفترة طويلة معتقداً أن احتياطه الأدبي سيسدد ديونه. لكن آنّا حلّت المشكلة بطريقتها الخاصة. ذهبت إلى التاجر الألماني، وعندما رآها أخذ يصرخ:

- سأسجنه، سأسجن كاتبك هذا، هذه كلمتي الأخيرة. فردت عليه آنّا:

- حسنٌ اسجنه، لكن عليك أن تدفع ثمن طعامه مدة سجنه، وسأطلب من زوجي أن لا يوافق على طبع أي شيء من مؤلفاته، وبعد عام، وتعرف أنت القوانين، سيخرج زوجي من السجن وقد تحرر من ديونك..

- وماذا أستطيع أن أفعل؟ كاتب ولا يملك قرشاً مثقوباً، كما يقول الروس.

- أخجل - ثارت آنّا من الغضب - إن زوجي إنسان نبيل، ولا يريد أن يذكر أقرباء شقيقه المرحوم بالسوء.

- أوه وماذا تقترحين أيتها السيدة اللجوجة؟

- سأدفع لك الدين تقسيطاً، كل شهر. ووافق التاجر.

☆☆☆

وبدأت آنّا العمل - العمل اللامحدود - خياطة الأثواب العتيقة، تدقيق مؤلفات زوجها، تدبير شؤون البيت، العناية بالأطفال، كل هذه الأشغال وإضافة لهذه الهموم، أضاف الناشر ستيلوفسكي هماً آخر، إذ قام بطباعة رواية «الجريمة والعقاب» أثناء وجود الزوجين في المهجر، والآن يرفض دفع ما يترتب عليه، وقدموا دعوى ضده تطالبه بدفع غرامة قدرها ثلاثة آلاف وثمانمئة روبل، لكن متى يستلمونها. وهل سيستلمونها فعلاً.. العمل.. والأشغال التي لا تنتهي...

أما فيودور ميخائيلوفيتش فكان متوتر الأعصاب، فنقاد المعسكر الديمقراطي يستنكرون رواية «الشياطين» التي بدأ نشرها في «البشير

الروسي» لدى كاتكوف. أما آنّا فكان رأيها أن الرواية ذات نزعة خاصة وألوانها متخثرة، لكنها مع ذلك تتضمن فصولاً في قمة الروعة وكانت ترى في الوقت نفسه، بأي تقدير واحترام يتعامل أبرز شخصيات معسكر الحكومة مع زوجها، وعلى رأسهم قسطنطين بيتروفيتش بوبيدونوسوف والأمير ميشيرسكي وكاتب الحكومة فيليبوف.. وهذا يعني أنهم في حاجة إليه، يرون فيه قوة كبيرة، وكانت ترى كيف كانوا يتزلفون أمامه من أفيركييف الذي تعرفه قديماً، والذي كتب قصة «عهد كاشيرا الغابر» والشاب فسيفولد كريستوفسكي، الضابط في الخيالة والكاتب حسب الموضة. ورأت كيف استقبلتهم أسرة كاشيروف المحترمة، والمهندس المعماري شتاكينشنيدر، ومدير البنك الحكومي لامانسكي والشعراء مايكوف وبولونسكي. وهل يمكن ذلك الجميع؟ فمنهم الفنان والعالم والمليونير، أمثال تريتياكوف الشهير، وقام الفنان بيروف برسم صورة دوستويفسكي لمتحف موسكو، وعلقت آنا على اللوحة قائلة، لقد استطاع الفنان تجسيد لحظات إبداع دوستويفسكي. وبشكل عام كانت آنّا ترتاح نفسياً للفنان بيروف. فهو لطيف وذكي وشريف في عمله، ولهذا ظل فقيراً.

نعم كان لدوستويفسكي القراء والأصدقاء والزملاء، وبينهم كانت شخصيات مؤثرة فعّالة، لكن لم يساعده أحد منهم عندما كان في أمس الحاجة للنصيحة. كانوا يعرفون صدق دوستويفسكي البريء وعدم كونه عملياً. وبدا لآنّا أنه لمن القساوة أن لا يقدم الأصدقاء المساعدة لحل المشاكل والديون والدعاوى المتعلقة بمعمل التبغ والمجلات التي خلفها شقيقه المرحوم. وكانت بعض هذه الدعاوى صورية للغاية،

واقتنعت آنّا بذلك بعد أن اطلعت عليها. أما دوستويفسكي فكان يصدق كل كلمة تقال له، ويعطي الكمبياليات لمواد قد سدد ثمنها ولمقالات سددت أتعابها لأصحابها.

وكتبت آنّا في مذكراتها كثيراً عن ذلك اليأس، الذي أصابها من جراء تسديد ديون الغير، لكنه كان بالنسبة لها إنسان قبل كل شيء. وأدركت آنّا أن موهبة زوجها تعاني من تلك العجلة، فكيف كان الوضع آنذاك: ثلاثة فصول طبعت ونشرت في المجلات، والفصل الرابع في المطبعة والخامس في البريد المتجه إلى موسكو، أما بقية الفصول فما زالت أفكاراً في مخيلة دوستويفسكي، وشاهدت كيف كان دوستويفسكي يحك شعر رأسه متألماً، حين يقرأ إحدى قصصه في «البشير» وكان يصيح: آه يا آنيا. لو أستطيع أن أعيدها، آه لو أستطيع أن أنقحها.

ولم تخبر آنّا زوجها بالزيارات التي يقوم بها بافل إيسايف مطالباً بدينه. وعن أنها رهنت فضتها عند أحد التجار، وعن طلبات الدائنين الدائمة الملحة.

وكان الأولاد يقتطعون القسم الأكبر من وقتها.

ليليا «هكذا لقبوا لوبا» خلعت يدها، فعالجها الطبيب، وتبين بعد ذلك أن يدها كانت مكسورة ونما العظم معوجاً. فكان على أسرة دوستويفسكي أن تعود إلى بطرسبورغ من ستاريا روسّا، حيث كانت تستأجر الأسرة بيتاً صيفياً عند الراهب روميانتسيف. وأجرى البروفيسور باوش عملية تقويم يد ليليا في العيادة، وهناك خبرت آنّا عن وفاة شقيقتها ماريا.

الأشغال وسوء الحظ... سوء الحظ والأشغال.

لهذا السبب كانت ثمينة تلك الأيام السعيدة، حتى السفرة الأولى إلى ستاريا روسّا، إلى ينابيع المياه المعدنية.

لقد سافروا بالقطار من بطرسبورغ حتى محطة سوسونكا، وبعد ذلك على ظهر السفينة حتى نوفغورود، ومن ثم إلى ستاريا روسّا.

أيقظ دوستويفسكي زوجته في ذلك الصباح هامساً.

- آنيا! اصعدي إلى متن السفينة وانظري كم المنظر رائع ومدهش!.
حقاً كان كل ما يحيط بهما رائع الجمال، الصباح الربيعي وجدران بيضاء من طراز جدران الكرملن، ورنين أجراس القبب الذهبية لكنيسة صوفيا، المتناهي إليهم من مدينة نوفغورود، تلك المدينة الروسية، من روسيا الوطن الذي لا يُنسى. وقفا طويلاً وفيودور ميخائيلوفيتش يحدث آنّا عن كنائس نوفغورود وعن الأساطير التاريخية القديمة.

☆☆☆

بعد مضي فترة من الزمن كادت تحصل أكبر مصيبة في حياة دوستويفسكي. لقد مرضت زوجته واعتلّت إثر ظهور خراج في حنجرتها وارتفعت حرارتها حتى الأربعين درجة، استدعوا لها الطبيب العسكري فقال الطبيب بكل قسوة:

- إذا لم ينفجر الخراج خلال فترة قريبة فيمكن أن يحدث الأسوأ.
وخارت قوى آنّا ولم يعد قلبها ينبض جيداً وكان من الخطر نقلها إلى بطرسبورغ البعيدة، وعندما رن الطبيب مهمازيه خلفه، إثر مغادرته

للمنزل، شعر دوستويفسكي باليأس يحيط به وراح يردد على مسمع زوجة الراهب:

- أماه، آنيا تموت يا أماه.. ماذا سأفعل من دونها. أنا أسألك... إلى أين سأذهب من دونها مع الأطفال. أنا لا أستطيع العيش من دونها، فهي كل شيء، هل تفهمين، هي كل شيء بالنسبة لي!

لم تكن آنّا تستطيع الكلام، ولهذا راحت تكتب على قصاصات من الورق ما يجب على دوستويفسكي أن يفعله في حال موتها.

- لا، لا، كان دوستويفسكي يبعد قصاصات الورق ويقول: لا أصدق... سينثقب الخراج. وذهب إلى الغرفة المجاورة، ثم أحاط رأسه بيديه وبكي بكاء مراً.

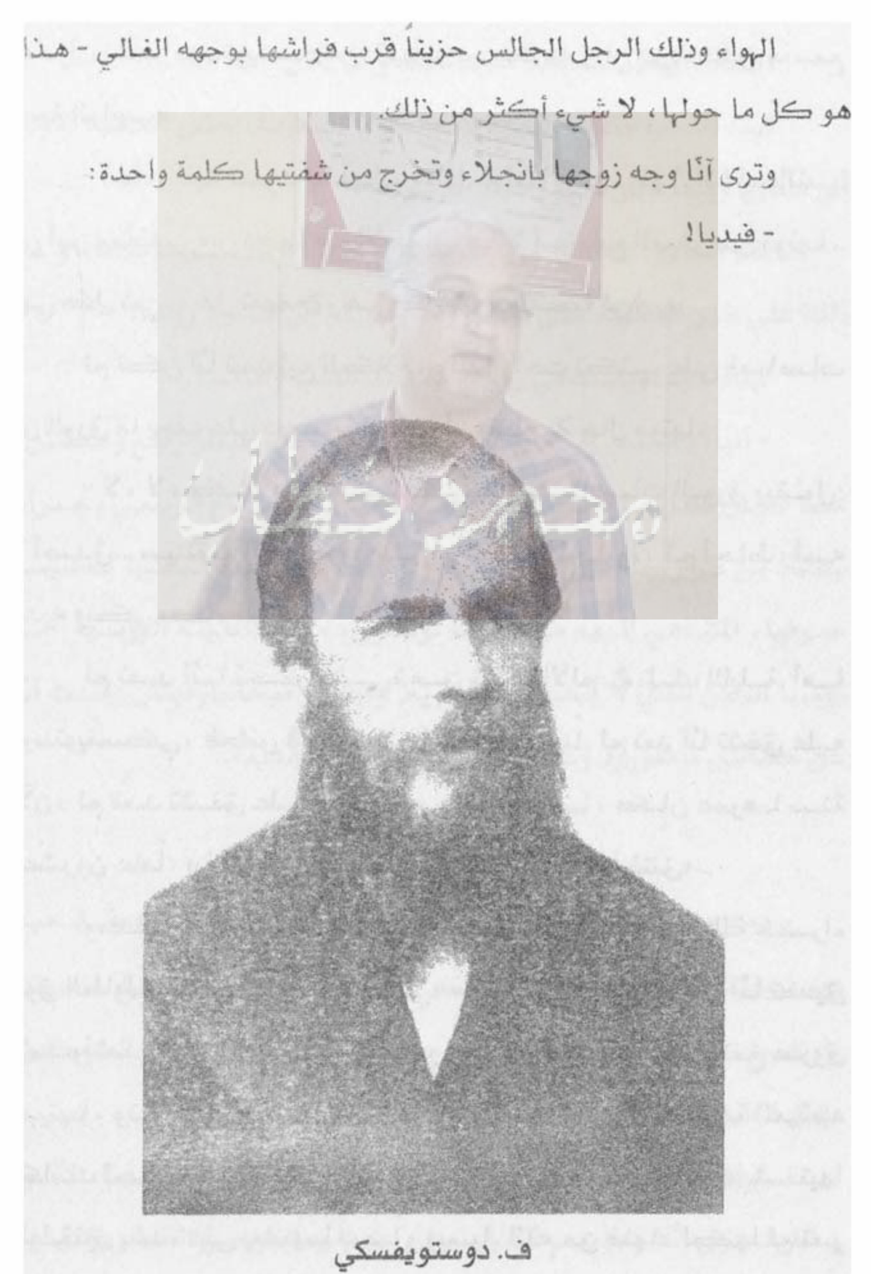
لم تعد آنّا تحسّ بشيء من شدة الألم في تلك الليلة. أما دوستويفسكي، فجلس قرب فراشها كئيباً حزيناً. لم تعد آنّا تشفق عليه الآن، لم تعد تشفق على نفسها أو على أولادها، كان عمرها ستة وعشرون عاماً: «يا إلهي، ساعدني ماء... هواء، أكاد أختنق»...

وكان الضوء المنبعث من الشمعدان الكائن تحت مظلة خضراء فوق الطاولة خفيفاً، يكاد لا يضيء معالم الغرفة، وحنجرة آنّا تضيق أشد وأشد، تريد أن تسعل.. وتحمر من الضغط المتوتر وتنتفخ عروق جبينها، وتئن، ومن جديد تعتصر حنجرتها إضافة لشخيرها المعذب. كانت تحس كيف كان الهواء يحفر رئتيها وتتربص له بشفتيها المطبقتين بشدة على بعضهما بعضاً، ويسيل الدم من فمها، لكنها لم تعر ذلك اهتمامها.

الهواء وذلك الرجل الجالس حزيناً قرب فراشها بوجهه الغالي - هذا هو كل ما حولها، لا شيء أكثر من ذلك.

وترى آنّا وجه زوجها بانجلاء وتخرج من شفتيها كلمة واحدة:

- فيديا!



ف. دوستويفسكي

# معرض اللوحات الفنية

حاز معرض اللوحات الفنية الذي أقامته أكاديمية الفنون، وشارك فيه كبار الفنانين على اهتمام كافة الأوساط. وطلب الناشر المحافظ لمجلة «المواطن» الأمير ميشيرسكي من دوستويفسكي مشاركته انطباعاته عن المعرض، تحت ذلك العنوان الذي يكتب فيه دوستويفسكي «يوميات كاتب».

وقال ميشيرسكي وهو يمد الكلمات بين شفتيه: أيها السادة، إن الفنانين الديموقراطيين يمتقدون أن ألوانهم وأساليبهم الوضيعة ستسود في الفن وستتغلب على الفن الراقي الرفيع. وأنا على يقين، أن أعينكم الصائبة سترى بوضوح تلك الركاكة لأولئك الفاشلين، الذين يتخيّلون أنفسهم عباقرة.

- حسب معرفتي وتقديري - أجاب دوستويفسكي - أرى أن لوحاتهم مليئة بالحياة أكثر، مليئة بالهواء المنعش أكثر من الأكاديميين.

وذهب فيودور ميخائيلوفيتش إلى المعرض، إذ كان بطبعه يقدر الفنون ويفهمها.

وكان يقف الساعات الطوال أمام لوحة قد أعجبته، سابراً أعماق فكرتها المجسدة على اللوحة.

وكان يعشق بشكل خاص لوحات متحف درسدن، وهل من الممكن نسيان «مادونا السيستين» رمز الطهارة والنقاء البشري، حتى يكاد لا يصدق أنها من صنع يد البشر. ولوحة «المسيح والدنانير» المرعشة لتيتسيا، والمناظر الطبيعية لكلود لورّين.

وأول ما لاحظه دوستويفسكي في معرض بطرسبورغ هو اختلاف طبيعة الجمهور. ففي درسدن كان المشاهدون ينتقلون من لوحة لأخرى بوقار ورصانة، حاملين مناظيرهم بمرافقة الأولاد، ويتأملون اللوحات بكثير من الرصانة الصامتة. كان ذلك شيئاً بارداً - أجنبياً، وحضر الأغنياء الإنكليزي، والسادة المتنورين - ليأخذهم الشيطان - كان الإنكليزي منهم ينظر إلى اللوحة وكأنه يقدم بمجرد نظراته شرفاً عظيماً للفنان، أما هنا فالشباب متجمع أمام اللوحات، يناقشها ويعبر بيديه عن أفكاره، وهذا يدل على وجود فن حقيقي عنيف. أهذا ما تدعوه فناً منحطاً أيها الأمير. حتى رجال ونساء بطرسبورغ الكبار في السن، شاركوا في مناقشة أفكار ومواضيع اللوحات، بنشاط ظاهر للعيان، لكن ليس بحرارة الشباب. وتقدم إلى دوستويفسكي الكاتب غريغوروفيتش الذي كان زميلاً أثناء سنوات الدراسة في كلية الهندسة، وكان مرتدياً بزّةً ملونةً، وصدرية مخملية وعلى عنقه ربطة عنق حديثة لم تعقد بشكل جيد، يحمل في يديه قفازيه ويتنفس وجهه بسعادة الحياة.

- آه يا عزيزي، - رحب بدوستويفسكي - ، لماذا لم تحضر يوم الافتتاح؟ آه لو رأيت كيف احتشد الجمهور آنذاك. لم يكن مقتصراً على الشباب ورجال الفنون فقط، بل شاركت فيه كل بطرسبورغ وخاصة سيادته رئيس الأكاديمية.

- وما علاقتي بالناس وبالرئيس؟ أجاب دوستويفسكي منفعلاً.

- آه أتيت بسوداويتك إلى هنا أيضاً، لكن هذه هي خاصتك - قال غريغوريفتش معارضاً، ولم يعد يقوى على الاحتفاظ بمزاجه السعيد. فتابع حديثه - أنا أعرف كثيراً من الفنانين، آه كم هم موهوبون يا فيودور ميخائيلوفيتش.

- لا حاجة لإرشاداتك - قاطعه دوستويفسكي غاضباً، فأنا أحاول بعقلي الصغير تمييز اللوحات. اعذرني يا ديمتري فاسيليفتش، واسمح لي أن أبقى وحيداً. سنتحدث في وقت الفراغ.

وظهرت في القاعة سيدتان مرتديتان أحد الألبسة، مسلحتان بمنظارين، يرافقهما ضابط.

- مسيو غريغوريفيتش. نادتا بصوت واحد، أي سعادة لنا إذا كنت مرافقنا خلال الجولة.

وابتسم دوستويفسكي لسماعه الحديث وتابع جولته في تأمل اللوحات.

مناظر طبيعية حقيقية خلابة، لكن، ليكن الله معهم ومع خطوطهم الذهبية، وابتعد غير راضٍ، حتى أنه لم يقرأ أسماء الفنانين، فليس كل فن فاتن.

ها هما شجرتا بتولا روسيتان خاصتان بالطبيعة الروسية، للفنان آرخيب كويندجي.. منظر على الغالب «أنهما مؤثرتان فعلاً. فهناك الرياح الشديدة ومع ذلك تجتاز شجرتا البتولا كل الصعوبات».

☆☆☆

لنعد الآن. شارك فاسيلي غريغوريفتش بيروف الذي رسم صورة دوستويفسكي لمتحف تريتياكوف في موسكو بلوحة «الصيادون في الاستراحة» فالشخصيات الثلاث المجسدة في تلك اللوحة مليئة بالنماذج القومية، وعمق روح الفكاهة، وهذه لوحة «عشاق غناء البلابل» للشاب الفنان فلاديمير ماكوفسكي... صحيح أنها ليست مليئة وفيها شيء من

عدم الإتقان - طبعاً ليس كما في الغرب، لكنها غالية على قلب دوستويفسكي ولكل مشاهد - لأن كل مشاهد يلاحظ ويشعر بكل دقة أنها من عمل فنان روسي. تاجر يستمع إلى غناء البلابل وعلى وجهه بهجة ساذجة. ربما كان في حياته بهذا الطبع، كأحد الأثرياء المختلسين، وبطبعه طاغية في بيته، لكنه مبتهج لشيء ما وهذا الابتهاج هو ما سجله الفنان في لوحته، تلك اللحظة من حياة التاجر الغارق في السعادة والغبطة. أما البائع، ذلك العسكري المتقاعد.. كم هو مليء بالكبرياء، وكم يحترم نفسه، كم هو فخور، كأنه مغنٍ إفرادي (سوليستا) «سأكتب عن ذلك فيما بعد» قرر دوستويفسكي في نفسه - آه منك أيها الأمير إن اسم عائلتك روسي، لكنك لا تفهم شيئاً من الروسية».

وتجمع المشاهدون بشكل خاص حول لوحة إيليا ريبين «نواخذ على نهر الفولغا» (الرجال الذين يجرون المراكب عكس التيار). وكان من الملاحظ أن هذه اللوحة تشكل قلب المعرض، إذ تجمَّع الناس حولها واحتدم النقاش بسرعة عنها.

- لم يرسم أحد من قبل مثل هذا - علق طالب ملتح - أنها خارجة من قلب الفنان، إنها الحقيقة المرعبة لأيامنا هذه. أنها تساوي عشرات من مقالات الفضائح.

وينظر الناقد فلاديمير فاسيليفتش ستاسوف برأسه الكبير، فوق المشاهدين وبتعابير وجهه القاسية وبلحيته الشبيهة بلحى الرهبان يحدث في اللوحة.

وقف دوستويفسكي طويلاً يتأمل اللوحة ولاحظ بعض المشاهدين وجوده، فتهامسوا فيما بينهم.. دوستويفسكي... دوستويفسكي «لكنه

لم يسمع شيئاً. أراد ستاسوف الاقتراب منه والتحدث معه، لكنه ابتعد عندما شاهد تعابير وجهه المتوترة. ولحقته مجموعة الشباب التي تستمع إليه بكل حصانة، إلى لوحة أخرى.

أخيراً تنفس دوستويفسكي الصعداء وأخرج علبة سجائره، لكنه تذكر أن التدخين ممنوع في قاعات المتحف، فأعاد العلبة إلى جيبه. كانت روسيا تنظر إليه من خلال لوحة ريبين، والشعب الروسي ينظر إليه. كنت تشعر وأنت تنظر إليها بمدرسة غوغول، المدرسة العظيمة - مدرسة حقيقة الحياة.

★★★

وفي الخلف سمع صوت إحدى السيدتين اللتين، كانتا تتجولان برفقة ذلك الضابط وغريغوريفيتش.

- آه كم هم قذرون، مرعبون، هؤلاء الموجيك، (الفلاحون) يا مسيو غريغوريفيتش فيها، شيء من الصوفية، شيء من دانتي، لكن لماذا، لماذا يجعلون من هذه السخافات ثروة ومواضيع للفنون الجميلة؟

- آه يا عزيزتي - قالت الأخرى - إن الآداب والفنون الراهنة في زمننا منحطة وكل أتباع نيكراسوف، يشوهون أخلاق الشعب.

الفرق كبير جداً حين نشاهد لوحات متاحف إيطاليا ولوحاتنا هذه. إن هذه اللوحات تصدم النفس، والأهم - ماذا يقول الأجانب عنا؟ وأحس الضابط بشيء من الحرج فقال:

- سيدتي، يبدو أنك لم تنصفي فنانينا، فهم ليسوا أغبياء، فهذا اتجاه جديد في الفن التشكيلي وأظن أن السيد المحترم يقف إلى جانب

رأيي. أن هذه اللوحات جديرة بالاحترام والتقدير. فما كان من غريغوريفيتش إلا أن أشار برأسه موافقاً، وقال في نفسه «لماذا ترمي الخرز أمام السيدتين».

لم يحتمل دوستويفسكي سماع الحديث خلفه فابتعد جانباً.

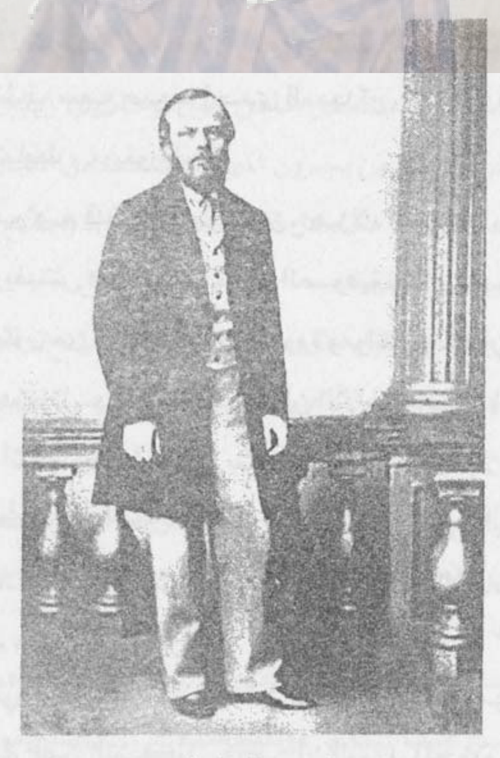
- من هذا؟ - سألت السيدتان باهتمام بالغ بعد أن لاحظتاه.

- فيودور دوستويفسكي. - أجاب غريغوريفيتش بجفاء.

- آه، هو بذاته؟ كم ذلك رائع.

- آه، كم هو سوداوي!

وراحت السيدتان تنظران إليه، وهو يبتعد من خلال مناظريهما.



ف. دوستويفسكي

# زيارة نيكراسوف

من النادر جداً أن يكون الطقس جميلاً في شهر نيسان في مدينة بطرسبورغ، وخاصة قبل ذوبان الثلوج. ففي شهر نيسان يكون الجو رطباً وتهب رياح بحرية شديدة. إجمالاً يكون الجو سيئاً في شهر نيسان، لكنه كان في هذا اليوم رائعاً مشمساً، والسماء صافية زرقاء ومياه نهر النيفا تتلألأ تحت أشعة الشمس، وكذلك القبب الذهبية لكنيسة إيساك. وبرج إدارة الأسطول البحري، ويخيل للمرء أن الحصان النحاسي للفارس يكاد يشب بثورة متمردة لينطلق من منصته. وعاد دوستويفسكي بعد نزهته على ضفاف نهر النيفا.

- طقس رائع - قال لزوجته وهو يسير إلى مكتبه.

أحسّ دوستويفسكي بنفسه خفيفاً، وكان حملاً ثقيلاً قد أزيح عن كتفه، عندما أنهى العمل المطلوب منه لـ «المواطن» ولرئيس تحريرها الجديد الدكتور في الحقوق بوتسيكوفيتش.

خلع ثيابه في المكتب واستلقى على الديوان ليستريح، وطلب بصوت بالكاد يسمع «لا توقظيها في الفجر...» وفي حلمه ميّز صوت جرس الباب وأصوات الخادمة وآنّا وصوت رجل سعيد معروف لديه في السابق. وهنا دخلت آنّا إلى المكتب وقالت:

- فيديا. لقد جاء نيكولاي ألكسيفيتش نيكراسوف. - أخبرت آنّا زوجها مسرورة، مدركة أهمية هذه الزيارة بالنسبة لدوستويفسكي

- أنه يرتدي معطفاً أنيقاً صنعت ياقته من فراء القندس، أما السلندر... ثم بدلت من طبيعة صوتها وقالت بشكل عملي: «لعله جاء من أجل عمل ما، هل أدعوه إلى المكتب»؟

لبس دوستويفسكي حذاءه وسترته.

- هل يحتاج ذلك إلى السؤال أيتها الأم، أنا شخصياً سأستقبله، شخصياً. لقد شرفني هذا الإنسان، وعليَّ... وكاد دوستويفسكي يهرع راكضاً لاستقبال نيكراسوف، وهو يحاول تسريح شعره بيديه إلى الخلف.

كان منظر نيكراسوف بسترته السوداء، وبنطاله الإنكليزي الرصاصي احتفالياً، وكان وجهه المستطيل ولحيته الحادة وعيناه السوداوان، تنظران بفطنة وسعادة.

لم يلاحظ دوستويفسكي للوهلة الأولى، أن شعر نيكراسوف، قد سقط عن رأسه، وأن الشيب قد غطى شعر صدغيه بشكل ظاهر، ولم يلاحظ أيضاً لون وجهه المعتل.

- نيكولاي ألكسيفيتش! وشد دوستويفسكي بقوة على يدي نيكراسوف مرحِّباً.

- كما ترى، حي وسالم.. تعال إذاً لنتبع العادات الروسية القديمة وتعانقا.

- أنا لا أصدق، - قال دوستويفسكي وهو يأخذ نيكراسوف إلى مكتبه، - بأن هذا هو أنت! الصدق أقول. اجلسوا، اجلسوا على الأريكة.

- سأجلس بكل سرور. لقد جئت لأصفعك، وأنت لم تمانع ذلك حفاظاً على الذكريات القديمة.

- كما تريد. أنت إنسان عظيم مجيد، شاعرنا الروحي.. مع أن كل منا قد سار في طريق مختلف عن الآخر، حتى أننا تقاسمنا المعسكرات يا نيكولاي ألكسيفيتش، لكنك تبقى بالنسبة لي...

- أعرف، أعرف يا فيودور ميخائيلوفيتش، قاطعه نيكراسوف بمودة - وأنا أحبك أيضاً، وأحب مؤلفاتك ما عدا «الشياطين» و«السرداب» واعذرني لذلك.

- مفهوم، مفهوم، فأنت الآن في طليعة فريق المفكرين الديمقراطيين، أوه! كم سببتم لنا من الآلام لي وللمرحوم ميخائيل ميخائيلوفيتش! هل تذكر «الصافرة»؟

- لا داعي، لا ضرورة لذلك الآن يا فيودور ميخائيلوفيتش، وكما قلتم «فريق الطليعة» ففيه اجتمع الشباب المتحمس الشريف القادر على التضحية بروحه من أجل روسيا. وإذا كانت قد ظهرت بعض المهاترات الصحفية فإنها معذورة لأنه - أنتم - نحن، نحن - أنتم (فقدناكم، فقدتمونا).

- وأنا، أنا يا نيكولاي ألكسيفيتش. ألا أعمل من أجل روسيا؟ من أجل الشعب؟ حسناً فماذا تقول عن بوشكين؟ حتى بوشكين - ورجفت شفتاه - أن نهليستيته لا تضربه، لا تخلعه أو ترميه.

- آه يا فيودور ميخائيلوفيتش، على الرغم من وجود أولئك، الذين يحاولون خلع بوشكين - وهذا عائد لشبابهم، لعنفوانهم - لكن ذكرى بوشكين وأعماله لن تمس، فبوشكين سيظل كما كان بوشكين الخالد، أبد الدهر. ولو كان بوشكين موجوداً الآن لعفا عنهم. ألا تذكر «فسامح حرارة، أيام الشباب» وفكر نيكراسوف قليلاً ثم أضاف: في حقيقة الأمر، أنا سعيد، لأن بوشكين لا يعيش في عصرنا هذا. كان كل شيء سيئاً آنذاك أما الآن... - ولاح بيده - في ذلك الوقت كان المنافقون، السفهاء ظاهرين للعين أمثال أركتشييف، غوليتسين،

بينكيندورف، أما الآن، المنافقون المعاصرون يتفوقون بدهائهم ومكرهم على أولئك - أمثال كاتكوف وميشيرسكي.

كم من الوجهاء الليبراليين يتذللون بقلوبهم المباعة للرقابة. وأنتم تعرفون ذلك جيداً يا فيودور ميخائيلوفيتش. لقد كتب بوشكين «ستسقط العبودية من جنون القيصر» والآن نرى ذلك بأعيننا، لقد كتب ذلك بوشكين رغماً عن القيصر آنذاك. ومع ذلك فقد حدث ما حدث. أما الآن فمن جهة يبدو أن كل شيء رائع، لا مثيل له: مجلات، صحف، اجتماعات، قوانين جديدة وجمعيات جديدة عديدة وشركات مساهمة. أما الشعب فيقول في حقيقة الأمر «القوانين مقدسة، لكن القضاة أشرار».

- إنها لفكرة رائعة، قال دوستويفسكي، وشعر بالقلق يهزه. وأضاف قائلاً صحيح ما كتبته في أشعارك يا نيكولاي ألكسيفتيش.

«كثير من الأخطاء في هذه التخيلات
والعقل البشري رقيق، مرن
أعرف أنه في أغلال العبودية
يفكر الناس بشكل آخر».

نعم بشكل آخر يا نيكولاي ألكسيفتيش، لكن من الممكن أن يكون ذلك ضرورياً، فمن خلال البحث في العذاب والألم، سيصل الشعب إلى حقيقته.

- لقد تعذب شعبنا كثيراً وعذبوه كثيراً - فجأة صاح نيكراسوف

- اسمع يجب أن لا تنطق بمثل هذه الأفكار المسيحية، وأن لا أسمعها أنا منك. لقد رأينا وجربنا كل شيء على عمودنا الفقري، رأينا «روائع» حصن بطرس وبافل ومنافي سيبيريا والعسكر.

- آه يا فيودور ميخائيلوفيتش، دعنا نتكلم عن شيء آخر. لا يجوز أن نعكر مزاجنا في هذا الطقس الجميل، الأفضل لو تحدثني عما

تكتبه من أعمال جديدة، لقد أخبروني بأنك تقترح علينا عملاً من أعمالك، ترى، حول ماذا يدور هذا العمل.

رواية يا نيكولاي ألكسيفيتش، إنها عن حياة شاب غير شرعي في الولادة، يحمل كنية أحد الخدم مع أنه في حقيقة الأمر هو ابن لأحد السادة، وأضع هذا الشاب الذي أنهى المدرسة الفرنسية والثانوية، ضمن دائرة مغريات بطرسبورغ المختلفة... وهنا كما تعلم يا نيكولاي ألكسيفيتش تكمن فكرة عظيمة، شاب أنوف يحمل كنية وضيعة، لكنه متعلم ويحمل أفكاراً مثالية، ويقع في وسط مجتمع بطرسبورغ الدنيء والمخيف، بدعارته وقلة أخلاقه، وفساد مغامراته. ويصاب الشاب بالهيجان تحت تأثير فكرة الثراء. وهنا فكرة المال - سلطة المليون عملية المليون، هذا كل شيء، وهناك بطل آخر، نموذج للسادة الجشعين، هل تفهمني؟ كنت قد فكرت بنشر الرواية في «البشير الروسي» لكنهم أخذوا مخطوط النبيل ليو تولستوي، ولا يوجد لديهم المال لروايتي. هذه هي المسألة الأولى.

أما الثانية يا نيكولاي ألكسيفيتش ، لمن الصعب جداً أن تلقى فكرة روايتي استقبالاً حسناً من قبلهم. ومن خلال السيدات المحترمات، لمحت لتيموفييف في «الوطنيين» وقد أرسل يليسييف سلاماً من طرفكم مع تلك السيدة المحترمة. وهذا يعني أنكم يا نيكولاي ألكسيفيتش عازمون على نشر روايتي. وكما تعلم فأنا استلم سلفة قبل تسليم العمل.

عليَّ أن أتعالج في «إمس» وقد طلب مني البروفيسور كوشلاكوف الذهاب للمعالجة هناك.

- سآخذها بكل ارتياح - وضحك نيكراسوف - وسأدفع لك لكل ملزمة مئتين وخمسين روبلاً. وسأنتظرك المدة الكافية لذلك.

- أنا سعيد، سعيد يا نيكولاي ألكسيفيتش، لكن كوني أتعامل مع «البشير الروسي» منذ مدة طويلة فمن واجبي أن أخطرهم بذلك. واسمح لي أن أخبر زوجتي عن هذا النبأ السعيد... وخرج دوستويفسكي من المكتب.

فرحت آنّا غريغورفنا بالنبأ، وكانت تعرف جيداً ماذا يعني نيكراسوف بالنسبة لزوجها إضافة، للأجر العالي.

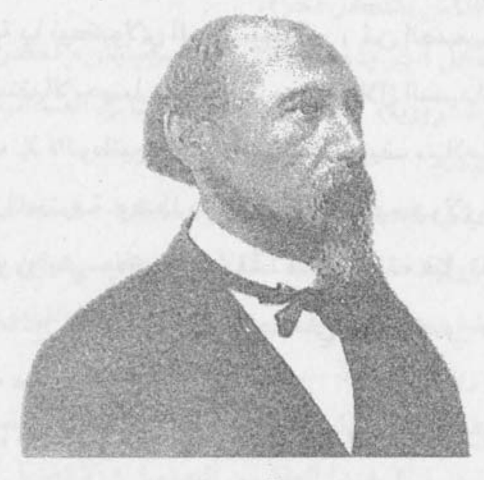
- وافق يا فيديا، وافق حالاً!

وشدّا على يدي بعضهما عندما خرج نيكراسوف مودعاً.

- شكراً لكم يا فيودور ميخائيلوفيتش مني شخصياً ومن يليسيف ومن سلتيكوف - شيدرين ومن كل زملائي.

أما ما يتعلق بالسلفة فستستلمها في أقرب وقت، وأعتقد أنه لن يكون هناك خلاف بيننا - وقطب نيكراسوف حاجبيه من شعاع الشمس اللامع الساقط من خلال النافذة ثم قال:

- آه يا فيودور ميخائيلوفيتش، كم يكون الجو رائعاً عندما تسطع الشمس!



نيكراسوف

# المحرر والناشرة

أثقلت الديون رأس دوستويفسكي. وكان لا يشعر بالهناءة لكونه لا يستطيع أن يقدم لزوجته إمكانية التمتع بالحياة، بأن يحضرا الحفلات، وأن يذهبا إلى المسارح، وأن يشتري الألعاب لأطفاله. وأخيراً وافق بعد إلحاح شديد من أصدقائه الفعالين على تحرير مجلة «المواطن» الأسبوعية، وبدأ دوستويفسكي بتحرير القسم الخاص بمراسلة القراء، و«يوميات كاتب»، أما أجره الذي كان يتقاضاه فكان جيداً من وجهة نظره، (وجهة نظر المحتاج) ثلاثة آلاف روبل للعام الواحد، إضافة لأجرة زاوية «اليوميات».

أخيراً، استطاعت آنّا غريغورفنا تحقيق حلمها في إصدار مؤلفات دوستويفسكي المنشورة سابقاً في المجلات، على حسابها الخاص، فكانت بذلك أول زوجة كاتب روسي تقوم بذلك العمل المضني، الذي يتطلب المحادثات والاتفاقات مع المطابع، وتصحيح الأخطاء المطبعية، وبيع الكتب وأعمال المحاسبة. حاول الأصدقاء نهيها عن ذلك قائلين: «العملية متعبة وتحتاج لتجربة مسبقة وأنت لا تملكين مثل هذه التجربة، فهل ترغبين في مضاعفة ديونكم؟» ومع ذلك تابعت آنّا عملها.

وافقت مطبعة الإخوة بانتلييف على التعامل معها بأخذ كمبيالة، وذهبت الأموال التي تقاضاها دوستويفسكي كأجرة أتعابه من «البشير الروسي» على شراء الورق. وطالب باعة الكتب آنّا أن تحسم لهم أربعين وحتى خمسين في المئة من سعر الغلاف. لكن آنّا المثابرة لم تمنحهم أكثر من ثلاثين بالمئة، وذلك في حال شرائهم أكثر من خمسين نسخة، أما إذا ابتاعوا عشرة نسخ فلم تمنحهم سوى عشرين في المئة كربح لهم.

- اسمحي لنا أن نكلم السيد دوستويفسكي كلمتين. طالبها بائعو الكتب. غير أنها رفضت ذلك بشكل قاطع. فكانت تجيب:

- لقد عمل دوستويفسكي طوال الليل وهو الآن قد أخلد للراحة.

وهكذا أصدرت آنّا خلال ثلاث سنوات ثلاث طبعات لـ: «ذكريات من بيت الموتى»، «الشياطين»، «الأبله» في كمية وصلت حتى سبعة آلاف وخمسمئة نسخة.

وكانت تحصل معهم بعض المواقف الهزلية أثناء قيامهم بهذه الأعمال وخاصة مع رواية «الشياطين». فيحدث أن ينسى مبعوث إحدى محلات بيع الكتب اسم الرواية فيقف ويحك مؤخرة رأسه، ويسأل الخادمة.

- قولي يا عزيزة! هل تباع الأرواح الشريرة؟ أو يأتي آخر ويقول مازحاً: لا وقت لدينا أيتها الحسناء، خذي النقود وأطلقي لنا سراح عشرة شياطين بسرعة.

وإذا لم نقل أن أسرة دوستويفسكي قد غنيت من ثمن الكتب و«يوميات كاتب»، التي بقيت حتى وفاة دوستويفسكي، فيمكن القول، أنهم استطاعوا تسديد كافة الديون المترتبة عليهم، وتأمين حياة لائقة بهم.

وبعد إلحاح شديد من دوستويفسكي ذهبت آنّا غريغوريفنا معه لحضور الأوبرا الإيطالية، حيث كانت تشارك فيه أديننا باتّي التي أدهشت جمهور بطرسبورغ، واحتلال مكانين في أعلى المسرح في مواجهة ثريا المسرح الكبيرة، ولم يكن في استطاعتهما مشاهدة الفنانين عملياً، غير أنهما استمعا إلى الغناء والموسيقا الرائعة بشكل جيد.



وكانت أعمال دوستويفسكي في «المواطن» جيدة في الفترة الأولى، لكنه سرعان ما بدأ يضجر من قراءة المخطوطات المرسلة إليه، ومن الأحاديث والمراسلات مع الكتّاب، وتنقيح الكثير من المقالات، إضافة لارتياب دوستويفسكي، وشعوره أن ميشيرسكي يعامله من فوق.

فعندما توفي الشاعر والكاتب فيودور توتشيف، كتب دوستويفسكي مقالة تأبين ورثاء له، غير أن الأمير ميشيرسكي طالبه، بل أجبره على نشر مقالته الأميرية عن الشاعر توتشيف، مع أن دوستويفسكي، أراد شخصياً أن يتحادث مع القراء عن الشاعر توتشيف، لكنه اضطر أخيراً لطباعة ونشر «المقالة الأميرية». وبشكل عام قرر دوستويفسكي التخلي عن تحرير المجلة بعد أن عمل فيها مدة عام كامل.

ولم تعارضه آنّا، إذ كانت ترى كيف أثقلت واجبات تحرير المجلة هموم دوستويفسكي، فكان يبدو حزيناً طوال الوقت، وكان عليه أن يقضي الصيف في غبار بطرسبورغ وأن تعيش العائلة بعيدة عنه في ستاريا روسّا (أصبحت الأسرة تعيش الآن في منزل العقيد غريبّي بدلاً من منزل روميانتسيف).

وفي إحدى المرات، قام دوستويفسكي بإيعاز من ميشيرسكي بنشر خبر استقبال القيصر لممثلي قرغيزيا، وجروا دوستويفسكي إلى المحكمة من أجل ذلك، بسبب نشره لهذا الخبر الذي يحتاج لموافقة إدارة القصر أولاً. وحكمت عليه المحكمة المنعقدة آنذاك بدفع غرامة مالية، وحجزه مدة يومين في الحبس. وبدأ الليبراليون ينظرون إليه بحذر، معبرين عن عدم رضاهم، لأنه يحرر مجلة ذات طابع ديني.

وكان على دوستويفسكي أن يهتم بقضية شقيقة والدته المتوفاة، والتي تركت إرثاً كبيراً تخاصم عليه الأقرباء المختلفون. (حصلت أسرة دوستويفسكي على حقها من الأرض الإرث بعد وفاة الكاتب).

كل هذه الأعمال كان لها التأثير السلبي على صحته، وفي شهر تشرين الثاني سقط دوستويفسكي في نوبة صرع قوية.

وعندما ترك دوستويفسكي أعمال تحرير «المواطن» لم يأسف على شيء، إلا على فراق مصححة الأخطاء المطبعية، التي لطفت وجملت ساعات عمله أثناء قيامه بتحرير المجلة، وللذكرى احتفظ دوستويفسكي بمجلد صغير لفيكتور هيغو «قصة فانتين» كهدية منها، والتي قضى معها ساعات الحبس.



# عندما كانت الأسرة في المهجر

منذ الصباح الباكر، بدأ دوستويفسكي بتسجيل ملاحظته لمخطط روايته «المراهق»، إذ كان الهدوء يخيّم على الشقة طوال اليوم، لأن آنّا والأولاد ذهبوا إلى المصيف، أما الطباخة داريا فقد ذهبت إلى مكان ما غير معروف. كان دوستويفسكي سعيداً. كل شيء يحظى بالنجاح، وهذا مخطط لرواية طويلة، لكنه سجل أهم النقاط فيها. نعم، نعم أن فيودور دوستويفسكي يدرك قلب بطله. وبطله هو دولغوروكي وليس الأمير. بطله المعذب بفكرة الحصول على المليون. فكرة بورجوازية. كل شيء يباع، كل شيء يشترى، معشوق - ذهب - معشوق - أسهم وفوائد. البطل روتشلد. لقد شاهد دوستويفسكي في إنكلترا موطن «ريتشارد قلب الأسد» عاهرة ممزقة الثياب - العجوز الطيبة. أما فرنسا، فلكل شخص حلمه - أن يصبح رجل أسهم. وماذا يعني رجل أسهم، بكلمة، يعني رجل مكور مثل قطع ذهبية، وهكذا يتدحرج. أما لامبرت من الدرجة الأولى ونصاب من النصابين، ومع ذلك يحسب نفسه إنساناً مثل أي رجل - أسهم. لامبرت يأخذ الـ... ويظن أنه يقوم بفعل الخير. ولا يقع في أنشوطتهم غير البائسين، وليس الحقراء. تحت تهديد السلاح. كما هناك من عمليات الانتحار. ويكتب دوستويفسكي. للأسف لم تكن آنّا معه فهنا بعض المقاطع التي كان يود أن يمليها الآن.

آه، يجب التفكير بجسدها الرائع الجذاب لي - أنا الإنسان الشبق، كم يثيرني، وكم اشتاق إليها!

تعب. فتحت النافذة.

رنت أجراس الكنيسة الإغريقية معلنة وقت الفطور، وعامت في الفضاء دن، دن، دن، وارتفع دوي القطار على الخط الحديدي إلى نيكولاييف. وطغى على كافة الأصوات، وانطلق صوت دوران آلات المصنع مثابراً مطالباً، فاستلقى دوستويفسكي على الديوان.

لقد فعل خيراً عندما تخلى عن تحرير «المواطن». فإلى أية درجة من الدناءة وصلت طلبات ميشيرسكي!. لقد طلب من دوستويفسكي أن يقيم شبكة جواسيس على الطلاب، مثل تلك الشبكات في الثكنات العسكرية. لتبقى سعيداً وحدك يا صاحب السعادة، أيها الناشر.

لكن دوستويفسكي ظل يتأسف على فراق فارفارا فاسيليفنا تيموفييفا. لقد ربطتها أواصر الصداقة مع دوستويفسكي. كانت تأتمنه على أحلامها، أما هو فكان يحدثها عن الأدب ويقدم لها النصائح. كانت ضعيفة نحيلة وعليلة بوجهها التعب. لقد دخلت المأساة إليها وهي في الثالثة عشرة من عمرها: لقد توفيت والدتها على سرير المرض، تلك الوالدة التي لم تعمل ابنتها سوى الأفكار الطاهرة، وتصديق كل ما يقوله الناس بكل سذاجة.

كان شعرها منفوشاً مثل والدتها، وعيناها رماديتان. وعلى وجهها شامتان، إحداهما على الخد الأيسر والثانية تحت شفتها السفلى. أما ضعفها فكان يتجلى في حبها للأشياء الجميلة، لذلك كانت تقتصد في طعامها على وجبتي الغداء والعشاء، وكانت فاريا بكل عواطفها تميل إلى الديمقراطيين. لكنها بقيت تعمل في تصحيح مقالات، «المواطن» دون أن تتعمق في قراءتها، أما دوستويفسكي فكان يلومها كثيراً. وكانت تترك كثيراً من الأخطاء في المقالات المذيلة بالأحرف الأولى دون ذكر

الاسم، إذ كانت تعود هذه المقالات إلى عضو مجلس الدولة بوبيدونوستسيف.

وكانت مجرد قراءة هذه المقالات، والتي يعرف دوستويفسكي مقصدها جيداً، عذاباً مراً لها.

- هل العدميون قريبون منك؟ - سأل دوستويفسكي.

وبعد أن نظرت فاريا إليه، قالت مؤتمنة له: - نعم.

كثيراً ما كان دوستويفسكي يؤنبها، لكنه سرعان ما يعود لمصالحتها. وكانت هي تحبه كإنسان وككاتب.

وهذا ما كان يرضي دوستويفسكي. والآن يتأسف دوستويفسكي لأنه لن يلقاها بعد الآن.

لقد كانت فاريا بالنسبة لدوستويفسكي برهاناً على حقيقة وصدق الشبيبة. كما كانت ترغب أن ينشر دوستويفسكي أعماله في «الوطنيين».

فجأة تذكر دوستويفسكي لا شعورياً كيف أساؤوا إليه. لقد دفعوا في «البشير الروسي» للكونت ليف تولستوي خمسمئة روبل لكل ملزمة من روايته التي لا تتجاوز الخمسين ملزمة. فكيف الأمر بالنسبة له، وهو في أمس الحاجة للمال ليرسله إلى أسرته ولشراء حاجياته.

☆☆☆

خرج دوستويفسكي إلى الشارع بعد أن شرب كأساً من الشاي.

وسار على شارع ليتيئني بروسبكت.. حتى وصل إلى منزل كرايفسكي، حيث يقيم نيكراسوف. استقبله نيكراسوف بحرارة -

وتحدثا عن الصحة وعن «ستاريا روسّا» وعن «المراهق»، وفجأة سأل نيكراسوف:

هل أنت بحاجة إلى ذلك المعدن الحقير يا فيودور ميخائيلوفيتش؟

- أنا دائماً بحاجة للمال. - أجاب دوستويفسكي بعد أن خفض نظراته الحائرة.

- أخرج نيكراسوف من درج مكتبه بعض الأوراق المالية.

- أعطيك أربعمئة روبل، ولو سمحت، أعطني وصلاً بذلك، والبقية بعد أسبوع.

وخرج دوستويفسكي فوراً إلى البريد، وأرسل حوالة بمبلغ قيمته ثلاثمئة روبل إلى «ستاريا روسّا».

(آه كم ستفرح آنيا بذلك) وأبقى معه مئة روبل لحاجياته الضرورية وقرر أن يقتصد في مصروفه الشخصي.

استأجر عربة وانطلق إلى البيت، وفجأة تذكر أن اللفائف والتبغ قد نفد لديه ولا يوجد شيء من الحلويات في البيت - كان دوستويفسكي يحب الحلويات. وأمر سائق العربة بعد أن لمسه على كتفه بالتوجه إلى محل الحلويات على شارع نيفسكي بروسبكت. واستقبلته بكل لطافة في محل الحلويات، بائعة مغناج أنيقة وعلى خدها غمازة، حتى أنه خجل أن يشتري القليل منها.

«سأشتري للاحتياط» - فكر دوستويفسكي - ويكون هذا أكثر عملياً. فلن اضطرب للانقطاع عن العمل مرة ثانية». وتجمعت العلب بسرعة أمامه لتشكل هرماً وفيها كانت الفواكه المحلاة

والحلواء، والفطائر والبونبونيوركا [1] الأنيقة الغالية الثمن - لم يسأل دوستويفسكي عما تحتويه.

وبعد ذلك ذهب إلى محل التبغ، وتبين أن محل بيع الشاي يقع بالقرب منه، وهنا اقترحت البائعة عليه أن يشتري صفيحة «قهوة برازيلية رائعة» إضافة للشاي، وكان دوستويفسكي يلوح بيده موافقاً على كل ما تفرضه البائعة، واشترى من القهوة ما يكفي لعائلة كبيرة مدة أشهر عديدة بكل ارتياح.

وبعد أن وضع المشتريات في العربة، تذكر دوستويفسكي أنه قد نسي شراء البرتقال، إذ كان يحب تناول البرتقال البارد مع الحلويات أثناء عمله، وهكذا مرّ إلى مخزن بيع الفواكه الأرستقراطي، واشترى إضافة للبرتقال رطلين من العنب وخمسة أرطال من الأجاص من نوع «بير»، وظهرت علائم الرضا عليه.

وعندما خرج دوستويفسكي من المخزن اصطدم بنيكراسوف. ونظر الشاعر إلى السلة المجدولة المليئة بالفواكه، ورفع يده محيياً دوستويفسكي، وتابع طريقه مخلفاً وراءه دوستويفسكي حائراً مرتبكاً كأنه تلميذ مدرسة مذنب يقف أمام معلمه.

في الطريق، قام دوستويفسكي بحساب ما صرفه، فتبين أنه لم يقتصد، بل لم يقتصد أبداً.

☆☆☆

---

[1] البونبونيوركا: علب كرتونية أنيقة، معقودة بشرائط حريرية، تستعمل للسكاكر والشوكولا (وهي كلمة من أصل فرنسي). م.

بعد أن وصل المنزل، طلب سائق العربة ثلاثة روبلات أجرة له، وقال:

- لقد اجتزت شوارع المدينة معك طوال النهار يا سيدي.

وهنا مدَّت امرأة شحاذة يدها لدوستويفسكي، وقد رأته حاملاً كل هذه المشتريات، فأعطاها قطعة نقود من عشرين كوبيكاً.

وبعد أن نفض دوستويفسكي محفظته في المكتب، تبين أنه لم يعد يملك الآن سوى خمسة روبلات.

وتذكر أنه لم يتناول شيئاً من الطعام منذ الصباح سوى تلك الفطيرة مع الشاي. ويبدو أن الطباخة لم تستطع انتظار قدومه فنامت بعمق على فراشها. وهكذا ارتأى دوستويفسكي أن يتناول غداءه من الفطائر والحلويات.

الحالة صعبة عندما تكون الأسرة في المصيف.

# ستاريا روسّا

كانت آنّا غريغوريفنا وابنتها لوبا وابنها فيديا ينتظرون وصول فيودور ميخائيلوفيتش إلى «ستاريا روسّا».

تلك المدينة القديمة المشهورة بمياهها المعدنية، حيث كانت الأسرة تعيش في المنزل الصيفي للعقيد «غريبّي» الواقع على ضفاف نهر بيريرتس.

كان فصل الخريف الماطر يبدو مملاً للغاية، حتى أنهم بدؤوا بإشعال النار في المواقد لتدفئة الغرف.

أما آنّا غريغورفنا فكانت منفعلة رغم طبعها الهادئ، إذ لم تتلق أية أخبار من فيودور ميخائيلوفيتش منذ أن استلمت الحوالة في الأسبوع الفائت.

أخيراً وصل دوستويفسكي يوم الأربعاء، وكان المطر يتساقط من السماء الرصاصية كما ينزل الماء من الغربال، حتى أن سواقي الحديقة المهجورة قد طفحت بالماء.

بينما كانت آنّا غريغورفنا تخيط زراً على سوتيان ابنتها لوبا، سمعت فجأة صوت الخادمة تقول «وصل السيد» فرمت آنّا ما بيديها وخرجت للقائه. وهلّل الأولاد فرحاً، وركضوا نحو الباب.

ظل فيودور ميخائيلوفيتش واقفاً قرب العربة ممسكاً بمحفظة نقوده، بينما حملت الخادمة الحقيبة وبعض الصرر إلى الداخل.

- آنيا - قال دوستويفسكي خجولاً - هل لديك قليلاً من النقود؟

- طبعاً - أجابت آنّا واحتضنت زوجها، وقبّلها دوستويفسكي بشفتيه الباردتين على خدها، ولامس بلحيته المبتلة من ماء المطر خدي آنيا.

- لماذا لم تكتب؟ لقد ظننت.. ألم تمرض يا فيديا؟

- لا، لم أمرض، لقد حفظني الرب، لكنني أُضنيت من التعب في بطرسبورغ، لقد تعبت طوال الوقت، واشتقت إليكم. دخلوا إلى المنزل.

- سنضع السماوار وسنشرب الشاي في الحال، أتريد أن تأكل

- سألته آنّا غريغوريفنا وهي تنظر إلى عينيه.

- حسنٌ، سأتدفأ قليلاً. جلبت بعض الحاجيات، فهنا شيء من القهوة والسكاكر، أما ما يخص النقود فأنا أشبه بنبيل إسباني.

- لكنك هل احتفظت بمئة روبل لنفسك؟ أنا لا أسأل لأعرف، أين صرفت النقود، لكنك هل أبقيت لنفسك ما يكفيك؟

- آوه يا آنيا - أجاب دوستويفسكي مهتاجاً - أنا لا أستطيع حساب كل كوبيك.

اقترب الأولاد من والدهم، الذي راح يمسح بكفه شعور رؤوسهم، ثم قبّلهم. وقال:

- عندما يجهز الشاي، سأقدم لكم أشياء لذيذة طيبة. وقدم لهم دوستويفسكي السكاكر والفطائر مع الشاي.

أما آنّا غريغوريفنا فراحت تحسب بذهنها كم تساوي هذه السكاكر والحلويات في البانينيوركا الأنيقة.

وتحدث دوستويفسكي باختصار (لم يكن يحبذ الحديث عن الأعمال أمام الأطفال وعن أعماله، وعن صحته، وعن زيارته لينكراسوف، حيث ينشر «المراهق»).

- لقد استقبلني نيكراسوف بحرارة بالغة. إنه إنسان رائع، أعطاني المال. وكما تعرفين يا آنيا أنه من الصعب الحصول على المال مسبقاً. لكن نيكراسوف منحها دون أن يوقعني في الحرج، وأخرج

دوستويفسكي علبة السجائر وأشعل واحدة - على فكرة - قال دوستويفسكي مسروراً - لقد جلبت كمية من القهوة، قهوة ممتازة. لقد أكدت لي السيدة البائعة أن القهوة برازيلية، فقررت أن أشتري كمية أكبر للاحتياط، ألا تلاحظين كم أنا اقتصادي.

لم تستطع آنّا غريغوريفنا الحفاظ على حالتها فراحت تضحك.

- لقد جلبت ما يكفينا لمدة عام كامل.

- وإذا حافظت على عادتك القديمة في إضافة الهيل إلى القهوة، فستكفي الكمية لعامين كاملين.

توردت آنّا غريغوريفنا، ولم تدر بما تجيب.

أصبح الحديث مملاً للأطفال. ولهذا راحوا يرفسون بعضهم بعضاً بأرجلهم، وكانت لوبا تحاول ضرب فيديا البارد الهادئ بقوة أكثر.

وخلف النافذة انهمر المطر بشدة، بينما راح كلب يعوي في مكان ما. كان دوستويفسكي يحب الخريف وأمطاره وخضاره ولونه المتكدر المعتم، وأشجاره العارية.

تأججت لديه الآن في هذا الجو العائلي روح الكتابة، فأراد أن يبدأ.

- آنيا - قال مخاطباً زوجته، التي جلبت الشاي مع شيء من المربى - لم تتعبي اليوم، أليس كذلك؟ - أتمنى لو تكتبين لي فصلاً من «المراهق»، فالمطر ينهمر في الخارج والمنزل دافئ. لقد قرأت مقالة في إحدى المجلات لعالم في الطب، يؤكد فيها، أن الدفء يحافظ على القدرات العقلية.

أظن، ليس من السهل أن يكون المرء في الشارع الآن، وفي هذا الجو. هذا ما يتراءى لي. أكاد ألمسه.

سائراً في الشوارع بلا هدف، وقدماه مبتلتان، وعلى رأسه قبعة (من الضروري أن تكون قبعته مدعوكة وأطرافها مهتدلة) ويسيل المطر وسخاً من أطرافها. فقبعته مهترئة بالية.

- طبعاً لم أتعب يا فيديا.

وأزالت آنّا غريغوريفنا الهباب من على الشموع (كان دوستويفسكي يكره المصابيح) ووضعت الكرسي خلف الطاولة، ثم كدست الأوراق أمامها، وتهيأت للكتابة.

اقترب دوستويفسكي من النافذة وأزاح عنها الستارة، ثم لامس بجبينه الزجاج المتعرق. لم يكن يرى شيئاً خلف النافذة، لكنه كان يتخيل بشكل واضح أوراق الأشجار الحزينة الملقاة على الحشائش المبتلة الصفراء بعد العاصفة.

- فيديا - خاطبته آنّا غريغوريفنا - ابتعد دوستويفسكي عن النافذة وأشعل سيجارة (كان يلف السجائر بنفسه).

- أتعرفين يا آنيا ما هو أشد أنواع العذاب رعباً؟

- لا، لا أعرف!

- سأقول لك، إن أشد أنواع العذاب، عندما يحلقون شعر رأسك وينزلون الماء البارد عليه قطرة فقطرة. يقولون أن المرء يفقد عقله من جراء ذلك.

- آه يا فيديا! لماذا نتحدث بمثل هذه الأشياء المرعبة. وارتعشت آنّا.

- آه منك، ها أنت قد فزعت. هيا اكتبي.

رغم أن آنّا كانت ناسخة ممتازة، غير أنها، بالكاد كانت تلحق كتابة ما ينطق به دوستويفسكي. فكانت تسأله عن بعض الجمل التي فاتتها.

- افهمي يا آنيا، إنك تقطعين سلسلة أفكاري بأسئلتك هذه. لقد فكرت بذلك جيداً، كانت الصورة واضحة أمام عيني. أما الآن فقد انقطع الخيط من فضلك لا تكرري ذلك مرة أخرى.

لم تجب آنّا بشيء، بل كتبت بسرعة الجملة التي كررها دوستويفسكي.

رشف دوستويفسكي قليلاً من الشاي، وأشعل سيجارة، وركز بنظراته المتوترة إلى نقطة محددة دون أن يزيح عنها، كما كان يحدث معه في السابق.

كانت آنّا تهابه في مثل هذه اللحظات، تخاف من وجهه المضاء بضوء خفي داخلي، المنقطع عن العالم الخارجي، من تجاعيد وجهه المقروءة بشكل واضح على جبينه العالي. أحياناً كانت آنّا تظن أنه أصبح إنساناً آخر، مجهولاً وليس زوجها الذي تعهده. وكان قلبها يرتعش عندما ينطلق دوستويفسكي بصوته المليء بالغضب أحياناً، المليء بالحزن أحياناً أخرى.

وعندما توقف دوستويفسكي فجأة عن إملاء آنّا، بدا صوت المطر الرتيب مسموعاً بشكل خاص. مضت عدة دقائق حتى بدأ دوستويفسكي إملاء آنّا من جديد. وكان ينقطع دوستويفسكي أحياناً عن العمل ويسأل.

- هل يبدو ذلك موفقاً يا آنيا؟ وترفع آنّا عينيها عن الأوراق لحظة وتقول:

- رائع، وصادق جداً.

وتفتر شفتاه عن ابتسامة صغيرة.

- حسنٌ، ألم تتعبي؟

كانت عينا آنّا تكاد تغفو، لكنها كانت تؤكد بصوتها اليقظ.

- ماذا تقول؟ استطيع الكتابة حتى الصباح.

وتمتلئ الأوراق بالإشارات والعلامات، ويشكل الشمع المذاب أشكالاً غريبة عجيبة على الشمعدان.

- هذا يكفي - قال دوستويفسكي أخيراً، اذهبي واستريحي، فأنا، أنا إنسان أناني، نعم، نعم أناني أنا يا آنيا، واقترب من زوجته ووضع يده على كتفها وقبّلها على خدها ثم قبّل عينيها - اذهبي - كرر ذلك منفعلاً - اذهبي يا آنيا - يجب أن أكتب مقالة للمجلة.

تنفست الزوجة الصعداء وخرجت متباطئة، ثم جلس دوستويفسكي خلف الطاولة وأخذ ورقة، وراح يرسم عليها باباً قوطياً، وارتسمت على وجهه علامات الملل والشر. لم تكن لديه الرغبة في كتابة هذه المقالة.

وبشكل لا شعوري، امتدت يده، وتذوق طعم المربى، ثم جلس والتهم كل ما في الصحن، وضحك قليلاً. «خلط الحلو مع المر»، وأخذ الريشة وبدأ يكتب بسرعة حتى انبلج الصبح.



بيت دوستويفسكي في ستاريا روسا

# الكاتب وأحد الوجهاء

تناول بوبيدونوستسيف [1] طعامه وارتدى سترة منزلة بنية وحذاء طرياً، بعدما عاد من محله، ثم تناول من فوق طاولته آخر عدد من «البشير الروسي» واستلقى على الديوان. فبدا بوجهه النحيل، الضعيف، وأنفه المعقوف وعينيه الرماديتين خلف نظارته، أشبه بطير من الطيور الجارحة الكبيرة.

وكان بوبيدونوستسيف، المحامي الواسع الاطلاع والعالم بقوانين وحقوق الكنيسة، قد كرّس كل نشاطه لخدمة ثلاثة أهداف «السلطة المستبدة، الشعبية، والكنيسة».

وبكل ارتياح قرأ قسطنطين بيتروفيتش بوبيدونوستسيف مقالة كاتكوف [2] عن بسمارك، إذ كان من المعجبين بشخصية بسمارك، وبرأيه كان المستشار بسمارك قائداً فذاً، ورجل دولة حقيقي. فكل أوروبا الغربية بملوكها ومجالس نوابها ووزرائها لم تكن تقوم بفعل أي شيء، دون سابق إخطار للمستشار الألماني، لقد اكتنزت إمبراطورية فريدريك بارباروسّا الألمانية في القرون الوسطى باللحم من جديد وبعد مئات السنين، وكل ذلك يعود لبسمارك المستشار الألماني، وكانت

---

[1] بوبيدونوستسيف. ن (1828-1907) - عضو مجلس الدولة ومربي ألكسندر الثالث. وكان النائب العام لمجمع الكنائس من عام 1880 إلى 1905. وكان له تأثير كبير على الإمبراطور ألكسندر الأول وألكسندر الثالث ونيكولاي الثاني وكان من أشد أنصار السلطة الاستبدادية.

[2] كاتكوف. م. ن. (1810- 1886) الناشر للصحيفة الرجعية «الاستثمارات المسكوفية» ومجلة «البشير الروسي» حيث نشر كبار الكتاب مؤلفاتهم فيها، وكصحفي، خاض نضالاً قوياً ضد الأفكار الاجتماعية المتقدمة.

فرنسا والنمسا الصديقتان، راكعتين عند أقدامه. وكان - فيكتور عمانويل- يرجف أمام عظمته والعرش المقدس يعانده بوهن وانكسار، أما إنكلترا فكانت تنظر إليه بذعر وحذر. وآنذاك كانت أشباح الثورة الليبرالية قد طردت من أوروبا لسنين طويلة.

من جهة أولى، كان بوبيدونوستسيف ينظر إلى كل ذلك بارتياح عظيم، ومن جهة أخرى أن وجود إمبراطورية ألمانية قوية على حدود روسيا يدعو لأخذ الحيطة والحذر، وهذا ما يتحدث عنه كاتكوف في مقاله - لكن بطريقة ليست مباشرة، إنه ذكي وشاطر.

وأخبره الحاجب عن وصول السيد دوستويفسكي.

ارتسمت على وجهه علائم السرور، إذ كان يتباهى بصداقته مع الكاتب الشهير، فمن خلاله، كان يحاول تمرير أفكاره في «يوميات كاتب» عن الأحداث المعاصرة. حقيقة الأمر أن هذه الأفكار، كانت تأخذ صيغاً أخرى عند الكاتب وتخرج بأشكال أخرى، ومع ذلك كان فيها شيء من قسطنطين بيتروفيتش.

ونهض قسطنطين بيتروفيتش بعزم الشباب ماداً يده لمصافحة دوستويفسكي.

- كم أنا سعيد لقدومك يا فيودور ميخائيلوفيتش، فمنذ لحظات قرأت مقالة كاتكوف في «البشير الروسي» وفكرت بك، أنت رجل ابن حلال. كيف حال الزوجة والأطفال. وبقي سؤال واحد، هل أنت جائع. أنا أعرف أنك ما زلت في حالة أرمل مهجور.

- لقد قرأت مقالة كاتكوف - أجاب دوستويفسكي وهو يرد على التحية - أما ما يخص أعمالي الأدبية فأنا مشغول الآن بكتابة

«المراهق» وأشعر بالارتياح. وسأبقى مع الوطن، دائماً، وآنّا غريغوريفنا والأولاد يرسلون إليكم تحياتهم واحترامهم، أما ما يخص الشاي فلن أرفضه.

ورن قسطنطين بيتروفيتش الجرس، وأعطى أمره (لم يكن يلاحظ وجود الخدم أبداً) وهو ينظر من فوق رأس الحاجب الذي دخل، فأمره بتحضير العشاء والشاي، وبتسخين زجاجة نبيذ أحمر.

ثم حضن دوستويفسكي من كتفيه، وأجلسه على الديوان.

- لماذا غيرت «البشير الروسي»؟

- غيرت، كيف؟! أجاب دوستويفسكي متحفزاً.

- بكل بساطة. لقد سمعت أنك رفضت نشر «المراهق» عند كاتكوف وأعطيت الرواية لنيكراسوف، ظهرت على وجه دوستويفسكي بعض البقع الحمراء.

- لا. أن كاتكوف هو الذي رفض نشر الرواية. أما «المذكرات الوطنية»! فلقد استعدتها وشكراً لنيكولاي ألكسيفيتش. أعتقد أنه قد فعل خيراً.

- خير! هم يسخرون منك، فسالتيكوف - شيدرين ينشر كثيراً من الدناءات عنك.. أما أنت فتقدم له المخطوطة... إن في ذلك لشيء من الغرابة يا فيودور ميخائيلوفيتش.. أنا أقول ذلك كصديق لك، غريب... وبسط يده.

- أنا إنسان روسي وأعمل شيئاً واحداً - الكتابة - أقدم خدمة واحدة للشعب. أما ما يتعلق بنيكراسوف فأنا أقدره رغم أن طرقنا التي سلكناها مختلفة عن بعضها بعضاً. أقدره بالضبط، يا قسطنطين

بيتروفيتش. فأنا أرى الضوء في مجلة نيكولاي ألكسيفيتش وأعتقد

- وكاد دوستويفسكي أن يصرخ - إنني أشعر بارتياح كبير لنشر روايتي عندهم.

ومدّ قسطنطين بيتروفيتش يديه مهدئاً وقال.

- آه منك كم أنت عصبي... فأنا أكلمك كصديق، أما أنت فتصرخ وكما تعرف إن كاتكوف يحترمك جداً ، بل يحترمك بإجلال.

- وأنا أحترمه. أجاب دوستويفسكي بتلكؤ. وتنفس الصعداء... هناك كثير من الحكايا تدور حول «البشير».

- الحكايا في كل مكان - أجاب قسطنطين بيتروفيتش وكأنه يقدم نصيحة، وهو ينظر إلى دوستويفسكي، ويراقبه كيف يدخن بشراهة «مدافعه» الغليظة - إن سمو ولي العهد ألكسندر أليكسندرفيتش سيكون سعيداً إذا قمت بزيارة لسموه، إذا سمحت يا فيودور ميخائيلوفيتش.

- لم أعتد على التحدث مع الشخصيات القيصرية - قال دوستويفسكي ضاحكاً، ثم أضاف: لقد عرفت من دليل روسي قديم إنني ما زلت حتى الآن مراقباً من البوليس السري. هل تفهمني. شيء غريب. فالليبراليون يشيعون بكل عداء أنني بعت نفسي - كما يقولون - للحكومة، والجندرما يراقبون كل خطوة من خطواتي. إذاً كيف يوافق سموه على التحدث مع مثل هذا المجرم؟

وشعر قسطنطين بيتروفيتش بالحيرة والارتباك.

- ماذا تقول؟ ماذا تقول؟ يبدو أن هناك شيئاً من عدم التفاهم.

- الذي يمتد لعشر سنوات - وابتسم دوستويفسكي.

- لابد ، بل عليَّ أن أكلم رئيس الجندرما - أقول لك كلمة شرف يا فيودور ميخائيلوفيتش إنه في أقرب وقت سيرفع اسمكم من المراقبة ، هذا إذا كنت تحت المراقبة فعلاً. كان التناقض واضحاً فيما بينهما.

وأدار قسطنطين بيتروفيتش دفة الحديث عن بسمارك، وعن الوضع في البلقان وعن دعم الحكومة للموانئ السلافية ، وكان دوستويفسكي يصغي بغير انتباه.

وأخيراً جاء الخادم وأخبر أن الطعام جاهز على المائدة.

حتى العشاء الدسم لم يستطع تصفية مزاج دوستويفسكي العكر. وفجأة سأل - دوستويفسكي:

- أنت يا قسطنطين بيتروفيتش، العضو في مجلس الدولة والمرتبط بأعمال الكنيسة الأرثوذكسية ، هل تؤمن بعقيدة الكنيسة؟

- دون أدنى شك أيها الصديق العزيز. إن ما تؤكده الكنيسة هو الحقيقة ، ولا يملك أحد منا الحق في الشك بذلك. إن أدنى شك في ذلك سيولد النقد. ويكفي أن نشك بشيء واحد حتى ينهار النظام بأكمله.

- أما أنا - اعترف دوستويفسكي - أشك أحياناً في ذلك. لا أريد أن أفعل ذلك ، لكن هناك شيء بعد الموت. أو مثلاً.. إذا تبين فجأة أنه لا يوجد هناك إله ولا نعيم ولا عذاب أبدي... مجرد فراغ لا غير.. وانظر من جهة أخرى فهناك الديانة المسيحية والإسلامية واليهودية ، والبوذية وعدد من الطوائف الأخرى، وكل من هذه الأديان يؤكد أن عقيدته هي الأصح. أتذكر أحد العملاء ، كان رجلاً قديساً وإنساناً طاهراً قرأ عشر آيات وعدة كتب من علم اللاهوت ثم صرخ «أؤمن لأن ذلك سخيف جداً» وهنا تكمن فكرة معينة. فكر بذلك قليلاً يا قسطنطين بيتروفيتش،

وسقط المنديل من يد قسطنطين بيتروفيتش وظهرت على وجهه علائم الرعب والهلع، ثم سأل:

- هل أنت جاد فيما تقول يا فيودور ميخائيلوفيتش؟ أنت الذي تعتبره الكنيسة الأرثوذكسية نموذجاً يحتذى به، ومشعلاً لفكرها؟!

- لكن هل تقرّ فخامتكم أن فيما قلته شيء من المعنى أو الفائدة؟ وإذا سمحت سعادتكم فأرجو أن تقرأ السيد ليسكوف، آ. أن السيد ليسكوف «قد التهم كلباً داخل الكنيسة»[1] نطق دوستويفسكي ذلك بارتياح خاص - كان يعشق تراتيل الكورس، لكنه تداعى في إيمانه... تذبذب. أما في بيت البروفيسور غرادوفسكي، فالطاولات تتراكض من تأثير قوة شيطانية لديه، مع أن الكنيسة تحرم استحضار الأرواح، نعم نحرمها.

- ماذا تقصد من وراء ذلك يا فيودور ميخائيلوفيتش؟ - قال قسطنطين بيتروفيتش ذلك وقد أحسّ بالانفعال الشديد ومن أجل أي شيء تذكر ذلك؟

وأنت يا قسطنطين بيتروفيتش تدعو للإيمان بتعاليم الكنيسة، وكل شيء تؤكده وتقره الكنيسة يصبح مقدساً بالنسبة لك، أليس كذلك؟

- اسمح لي أن أذكر.. واقعة حقيقية:

ففي عهد القيصر ألكسي ميخائيلوفيتش، اعتبرت الكنيسة المقدسة وعلى رأسها البطريرك، رفات الأميرة القديسة آنّا كاشينسكيا، مقدساً، أبدياً وقررت تقديم الصلوات له. وفعلاً حدثت

---

[1] هذا يعني أنه يتكلم كثيراً وبصوت عال، يشبه النباح - م.

معجزات آنذاك أمام رفاتها، حتى أن القيصر ألكسي ميخائيلوفيتش وضع رفاتها المقدس في مزهرية فضية أمام وجهاء مدينة كاميشن.

وفي عهد ابنه القيصر فيودور ميخائيلوفيتش، ارتابت الكنيسة المقدسة وعلى رأسها البطريرك في قدسية رفات الأميرة آنّا، وأمر القيصر بإيقاف تقديم الصلوات للقديسة آنّا وحرمها.

- من أجل ما ذكرته لك سابقاً. فإذا كان المؤمنون الصالحون يقومون بمثل هذه الأفعال، فماذا ننتظر في المستقبل؟ كفر وبلبلة عالمية. فعندنا يخافون من الملحدين وأنا لا أعرف من هو أشد ضرراً من الآخر: بابا روما أم باكونين.

فما رأيك يا قسطنطين بيتروفيتش؟ أي من الكنيستين المقدستين على حق؟ ففي كلا الحالتين يوجد إقرار كنائسي وبطريركي.. وهكذا أستطيع أن أقول، إذا كان على الإنسان أن يؤمن فعليه ألا يؤمن بالتعليمات والمعتقدات، بل أن يؤمن بكل بساطة، أن يؤمن بروحه، أن يؤمن بسخافة، لكن مع ذلك عليه أن يؤمن مثل إيمان الأب ليسكوفسكي. هل تذكر ذلك الأب القروي العجوز. كان طاهر الروح، حتى أنه عندما كان يذهب إلى الحقول ليدعو الله أن يبعث المطر، كان يأخذ مظلته معه [1]، هذا هو الإيمان الصحيح، حتى الرسول بطرس نفسه يحسده على مثل هذا الإيمان، بمثل هذا الإيمان تستطيع أن تهز الجبال. لكن إيمانك يا قسطنطين بيتروفيتش، وسامحني على كلامي فهو إيمان في البزّة الرسمية وبأزرار مجلس الدولة، وإيمان مربي ولي العهد ألكسندر أليكسندروفيتش.

---

[1] المقصود، أنه من شدة إيمانه لابد أن الله سيستجيب دعواته ويبعث بالمطر، ولهذا كان يأخذ معه المظلة. م.

وضحك فيودور ميخائيلوفيتش بعد أن رأى الذعر الحقيقي في عيني قسطنطين بيتروفيتش الواسعتين، فقال ضاحكاً:

- أنا أمزح، أمزح، هذا ما أراه، ما تخيلته، والأصح ما لفقته.

عندئذٍ تنفس قسطنطين بيتروفيتش الصعداء وقال:

- لقد ظننت أنك جاد في حديثك يا صديقي الغالي، وتابع بعد أن ارتاحت نفسه قليلاً:

- لا يجوز ذلك. مع أنه يمكن أن نعذر كاتباً لمثل هذه الأفكار، ومع ذلك فأنصحك ألا تسيء استخدام هذه الأفكار، فمنها يلامس الصقيع الجلد [1].

واتجهت نظراته إلى أيقونة القديس القيصر قسطنطين المعلقة في الزاوية الحمراء.

كانت الأيقونة قيمة جداً لرسام قديم في إطار ذهبي.



---

[1] إشارة للنفي إلى سيبيريا. م.

# ناستينكا

أحسَّ دوستويفسكي بالكآبة المعروفة لديه سابقاً، قد استولت عليه بعدما عاد من زيارة قسطنطين بيتروفيتش، نعم استولت عليه بالضبط...: آلم في القلب، الهواء لا يكفي الرئتين، والقلب ينبض بشدة، وألم في الجانب الأيمن من رأسه.

مضى سائراً لا يلاحظ الشوارع والمارين. واعتلت المدينة سماء رمادية اللون غائمة، هبت الريح وشرعت السماء بالمطر، وعلى الضفاف كانت المصابيح القلائل ترسل أنوارها. توقف دوستويفسكي واستند بمرفقيه إلى الطنف البازلتي وراح ينظر إلى المياه السوداء اللون متحسساً رطوبتها. وصاح دوستويفسكي:

- القانونيون، المنافقون - وبصق في الماء.

مرّ بالقرب منه عسكريان يرنان بمهمازيهما، ونظرا بحيرة إلى السيد الواقف هناك، أما دوستويفسكي فكان يردد بعض الكلمات غير المفهومة.

- سراقون، أرواح شريرة خبيثة، الشنيع في كل مكان... يريدون أن يكونوا طاهرين بدون آثام. لكن أرواحهم مليئة بالدناءة.

ومرت من قربه امرأة مرتدية معطفاً خفيفاً وحقيبة نسائية على يدها.

فجأة أبطأت المرأة من خطواتها، ثم عادت إلى الوراء، ووقفت قرب دوستويفسكي، وراحت تنظر إلى النهر مثله...

- الحياة اللعينة - قالت بصوت هش مقطع - مطر، لقد ابتللت كلياً ويبدو أنني سأنام هذه الليلة بدون عشاء، وستلعنني سيدة البيت، فهي لا تحب عودتي بدون زائر كريم.

بدا وجهها الأسمر من خلال الضباب والمطر مخضراً، وعيناها تغرقان في محجريهما تارة، وتبرزان تارة أخرى.

- ما اسمك؟ سأل دوستويفسكي.

- أناستاسييا - أجابت المرأة - ويمكن أن تدعوني ناستيا، وإذا شئت بشكل آخر ناستينكا.. أما لقبي فلقب كلاب مثل مهنتي.

وهنا تذكر دوستويفسكي بطلة «الليالي البيضاء»، الملقبة بهذا الاسم.

- هل تسكنين بعيداً من هنا؟ سأل دوستويفسكي بشكل لا إرادي.

يبدو أن المرأة قد فرحت بسؤاله، فاقتربت منه حتى لامست بكتفها كتفه وقالت:

- لنذهب إلى بيتي يا حبيبي. فالبيت ليس بعيداً - بل هنا بالقرب، لكن يتوجب علينا أولاً أن نأكل شيئاً ونتدفأ بقليل من الفودكا إذا أمكن... وعندما لاحظت صمته المطبق، أسرعت في حديثها تحثّه بحماس على الذهاب معها.

- أنا لست كالبقية، فأنا من الحاجة... ووالدتي ملاكة في سيريوخوف لكنها مريضة، وهناك شقيقتي، لقد أنهيت دراسة الصف الثاني، وبعد ذلك خدمت عند المدام، ثم طردوني - كانت عيناها السوداوان الجميلتان تنظران برجاء، أنا نشيطة وأستطيع الغناء إذا أردت، ولا آخذ أجراً باهظاً، أوافق على ما تترحم به... أقسم بالله أنني لم أبلل ريقي طوال اليوم.

- لا حاجة لكل هذا الكلام.. والأفضل أن تستدعي عربة - أجاب دوستويفسكي بفتور.

- ها هو فانكا. وساط الحوذي فرسه الهزيلة، واقترب منهما.

وأمسكت ناستيا دوستويفسكي من يده وقادته إلى داخل العربة، وكانت العربة مسقوفة بجلد مشدود.

- اسمح أن نذهب أولاً إلى الحانة... وأومأ دوستويفسكي برأسه موافقاً وتحسس محفظته في داخل جيبه، وأخرج روبلاً فضياً منها وقدمه لناستيا وسأل:

- ألا يكفي؟

- الأسعار ترتفع عند المساء، أضف خمسين كوبيكاً فيكون التمام. فناولها دوستويفسكي روبلاً آخر.

- تبدو رجلاً حقيقياً من أول نظرة، رجلاً متعلماً وكادت ناستيا تصرخ بحماس، وارتمت بخدها على شفتيه ففاحت منها رائحة البودرة الرخيصة، وزكمت أنف دوستويفسكي.

لم تتوقف ناستيا عن الحديث طوال الوقت في الشارع أو في الحانة، أما دوستويفسكي فلم يكن مصغياً إليها. واشترت ناستيا زجاجة فودكا وخبزاً فرنسياً وسجقاً وسمك الرنجة، وقالت بشكل عملي:

- روبل وثمانية كوبيكات، وها هي البقية.

- حسنٌ - أجاب دوستويفسكي بصوت متكسر - هل نصل البيت قريباً؟

- خلال ثانية.

ووصلا أخيراً إلى المنزل الذي تقيم فيه ناستيا، كان منزلاً كبيراً مؤلفاً من ثلاثة طوابق، وكانت رائحة القطط تفوح على الدرجات المتعرجة المنزلقة. وقادت ناستيا دوستويفسكي بيدها الرطبة الحارة.

«لماذا أتيت إلى هنا؟ - فكر الكاتب - ربما كان من الأفضل أن أغادر هذا المنزل فوراً إلى بيتي... أن أعطيها النقود وأذهب... لكن ماذا سأفعل في البيت؟ فالعائلة في المصيف وستنهشني الكآبة في البيت، سأجلس وأشرب الشاي عند ناستيا على الأقل... قبل قليل شربت الشاي مع قداسته والآن مع عاهرة.

- لقد وصلنا - قالت ناستيا، وقرعت جرس الباب بعد أن تحسسته في الظلام. وعم السكون بعد رنين الجرس، وانبعث صوت من الداخل.

- من هناك؟

- هذا أنا يا فارفارا ألكسيفنا مع زائر طيب. وانفتح الباب وظهرت امرأة على العتبة تمسك شمعة صنعت من الشحم، ملتحفة بغطاء وسخ من الشيت. كان وجهها عريضاً مترهلاً، وأنفها أفطس الشكل وعيناها رماديتين شقيتين، أما ذقنها فلا شكل له.

- نحن سعداء دائماً باستقبال الزوار الطيبين. ادخل، تفضل أيها السيد فالطقس بارد في الخارج.

وزكمت أنف دوستويفسكي رائحة، الخرق وشيء ما حامض عفن. فابتسم بحزن وقال:

- فرصة سعيدة للتعرف عليك.

كانت غرفة ناستيا تقع إلى جوار المطبخ مباشرة بطول أربعة أمتار وبعرض ثلاثة. والسرير انتصب قرب الجدار، مغطى بغطاء صنع من الخرق البالية، وستارة حمراء من الشيب علقت على النافذة، أما الطاولة فكانت قرب النافذة وعليها كأس وفنجان قد انكسرت مسكته. وهناك بعض الصحون، ومزهرية زرقاء صنعت من الزجاج الرخيص مع

بعض قطع السكر. وعلى الصوان. مرآة وأحمر الشفاه، وبطاقة عليها صورة حمامتين صغيرتين في إطار من الصدف. وصورة رخيصة للقيصر ألكسندر الثاني في لباس الفروسية، وفوق الصورة على الجدار علقت أيقونة نيكولاي المحبوب، ووراء الأيقونة وردتان ورقيتان. كان المكان ضيقاً للغاية.

- أرجو المعذرة - قالت الفتاة، الفقر! وكانت الشمعة تطلق الدخان فأزالت ناستيا الهباب، فأصبح الضوء مستقيماً.

خلع دوستويفسكي معطفه، فأخذته الفتاة باعتناء وعلقته على المسمار الذي يحل محل العلاقة.

أما ناستيا فكانت في فستان سماوي مطرز عند الياقة ببعض القطع البلورية الروسية. كانت تبدو شابة هيفاء رشيقة.. وعلى عنقها، خرز بألوان مختلفة متعددة.

استطاع دوستويفسكي الآن أن يتبين معالم وجهها المتطاول وعينيها العسليتين، وشعرها الأسود الكث الجميل، وعمرها يقدر بعشرين أو اثنين وعشرين عاماً.

- هل تعبدين الله دائماً يا ناستيا؟ - سأل دوستويفسكي، فأجابته ناستيا:

- كيف لا؟ فأنا أرثوذكسية وأذهب للصلاة مع الأب في الكنيسة. واعتلى صوت بكاء طفل خلف الحائط، وصوت أرجوحة تهتز، قالت ناستيا:

- هذه طفلة ابنة شقيقة صاحبة البيت، فلا يوجد حليب في صدر كاتيا والطفلة جائعة.

ووضعت ناستيا المأكولات والمقبلات بنشاط ووزعتها على الصحون - السجق، السمك، الخيار وقطع الخبز. واستأذنت من دوستويفسكي قائلة.

- اسمح لي أن أدعو سيدة البيت. فوافق دوستويفسكي.

- شكراً لك.. كيف ينادونك رسمياً؟

- فيودور ميخائيلوفيتش.

- وبأي حقل تعمل؟

- في الكتابة.

لقد توقعت ذلك، فأما أن تكون موظفاً، أو معلماً. ودخلت صاحبة البيت حاملة السماوار المليء بالماء المغلي. وقالت:

- لن تستطيع فتاة ربط ضفيرة شعرها المقصوص حتى يكون السماوار جاهزاً. تفضلوا واشربوا الشاي، لقد غليت شاياً صينياً زهرياً.

- تفضلي واجلسي معنا وشاركينا يا فارفارا ألكسيفنا.

وساند دوستويفسكي الدعوة موافقاً بهز رأسه.

- أنا آثمة، وأحب أن أولع نفسي بالبونش [1].

جلست وصبَّت الشاي وأضافت الفودكا والسكر، وصارت تدريجياً تشرب وتنتجشأ. وهجمت ناستيا على الطعام بعد أن شربت القدح الثالث.

- صعب على الفتاة أن تعيش بدون شاب فتي - قالت سيدة البيت - صدقني أيها السيد فرغم إنني قد اعتدت على رؤيتهن، غير أنني أحس بوخزة في القلب. فلدي الآن بنت شقيقتي... التي أخفقت في حياتها، وتعيش الآن مع طفلتها وتتعذب. شربت ما في القدح ثم خرجت.

---

[1] كلمة إنكليزية، تعني: مشروباً روحياً. وهو عبارة عن كوكتيل من الويسكي والكونياك والروم، مغلي مع السكر وعصير الليمون أو بعض الفواكه الأخرى. م.

- شكراً على الضيافة.

أكلت ناستيا آخر قطعة من السجق، ونظرت بعينين مخمورتين على الضيف. أما هو فقد جلس بوجهه الرمادي، ضجراً يدخن سيجارته.

- هل تريد أن تستريح يا فيودور ميخائيلوفيتش؟ - صحا دوستويفسكي في تلك اللحظة.

- أستريح؟ - كرر دوستويفسكي السؤال - وأنت (وأشار برأسه إلى أيقونة نيكولاي) ألا تخافينه؟

- ولماذا؟ إنني أدير وجهه نحو الجدار، عندما يأتيني الزوار.

وارتعش جسد فيودور ميخائيلوفيتش: وجهه إلى الجدار! وأحاط ركبتيه بيديه وأوطأ برأسه فبرز جبينه المتورم بوضوح تحت ضوء الشمعة.

اقتربت ناستيا من الأيقونة.

لا تلمسيها: قال دوستويفسكي بصوت خافت، كاد يكون همساً.

- كما تريد يا فيودور ميخائيلوفيتش. لماذا تنظر إليَّ بهذا الشكل.

وأحسّت فجأة بالخجل، وأدركت أن هذا الزائر ليس كبقية الزوار. حتى أنها شعرت لو طلب منها أن تتعرى أمامه لما استطاعت.

واعتلى صوت بكاء الطفل في الغرفة المجاورة، وسمع صوت امرأة تقول: «اسكت أيها المكروه، يا إلهي». وبعد ذلك سمع صوت لطمة خفيفة وزعيق طفل حاد.

ونهض دوستويفسكي عن الكرسي وقال:

- مريها أن تترك الطفلة، هل يجوز ذلك؟! وأخرج المحفظة من جيبه وأخرج قطعة ورقية وأخرى فضية وراح يحشرها في يد ناستيا، وهو يقول:

- أعطيها، أعطيها هذه النقود، قولي لها ألا تتجرأ وتضرب الطفلة ثانية.

- لماذا كل هذه النقود لها. سألت الفتاة مندهشة.

- أعطيها، أعطيها! - كرر دوستويفسكي.

وظلت ناستيا في مكانها واقفة دون أن تتحرك. عندئذٍ أخذ دوستويفسكي ينفض كل ما في محفظته على الطاولة، فكان هناك روبل ذهبي وثلاثة روبلات فضية.

- هذا لك، لكن أسكتوا بكاء الطفلة. وأزبدت شفتي دوستويفسكي، وبدأ يخبط برجليه.

- اذهبي، اذهبي في الحال.

فصفقت ناستيا بكفيها وخرجت مسرعة إلى الممر.

بدأ دوستويفسكي يتنفس بصعوبة، وقد انهارت قواه فجلس على السرير.

- كل شيء إلا النوبة. علي أن أستلقي، وأنا أقلع عن التفكير بأي شيء. وسمع بعض الأصوات الآتية من الغرفة المجاورة، وسرعان ما كفّت الطفلة عن البكاء.

وعندما عادت ناستيا إلى الغرفة، وجدت دوستويفسكي مضطجعاً على السرير... رأسه مائل إلى الجانب، وفمه معوج وعيناه مفتوحتان بارزتان، لا يرى فيهما سوى البياض.

أما جسده فكان يرتعش في تشنيج من نوبة الصرع. وصرخت ناستيا مرتعبة، ونادت صاحبة البيت.

عندما أفاق دوستويفسكي رأى ناستيا منحنية عليه، وقد وضعت قطعة قماش مبللة بالماء على جبينه. وياقة قميصه مفتوحة، ورجلاه بدون حذاء.

- ما بك؟ لقد خفت - قالت ناستيا بكل بساطة - ظننت أنك ستموت دون قصد.

- هل كنت تأسفين عليَّ؟ سأل دوستويفسكي بصعوبة.

- طبعاً.- أجابت ناستيا بكل صدق -، فأنت سيد طيب لكنك بائس.

- لقد دعتني ابنة الشارع بالبائس. كيف عرفت ذلك. صحيح فأنا سافل وبائس.

- هذه نقودك خذها - قالت ناستيا - فأنا لن آخذها. لم تكن في حالتك الطبيعية، حينما أعطيتني النقود.

- لا ، لا. خذيها وتقاسيمها معهم. كان يتكلم وكأنه يهذي.

- لكن أرجو أن تذكريني، من الضروري أن تذكري البائس فيودور. والآن أعطني حذائي.

ودون أن تنبس الفتاة بكلمة، ناولته الحذاء وساعدته في ارتداء المعطف فقط. وأتت بالشمعة، وأضاءت له الممشى.

لم يتبادلا أية كلمة أخرى. وعندما هبط دوستويفسكي إلى أسفل الدرج، القذر، وضعت ناستيا الشمعة على الدرج وركضت نحوه وأمسكت رأسه بيديها وشدته إلى صدرها بقوة ومن خلال دموعها، قالت بشكل عاصف.

- مسكين أنت يا عزيزي.

☆☆☆

ها هو الشارع من جديد.

لم يعد الشارع مظلماً، بل رمادي اللون، ضباب الصباح الرمادي يتصاعد من نهر النيفا، حتى أن موظفي البيوت بدوا له بلون رمادي قذر.

مضى دوستويفسكي وقد رفع ياقة معطفه حول عنقه، وأدخل يديه في جيوبه، وراح يردد بنفس الصوت: - بائس، بائس.

راح يطوف المدينة بلا هدف، يمشي من أجل أن يمشي. والمدينة - التي تتسع للمضطهدين من قبل الأغنياء، والأشرار والأغبياء، المدينة اللعينة والعظيمة في آن واحد، مدينة الشحاذين والبيوت العامرة والقصور اللامعة. انفتحت أمامه كما تتفتح صفحات معروفة لديه من كتاب مكتوب.

وجرى اللقاء الثاني مع ناستيا مصادفة في إحدى الأمسيات.

عندما لم يستطع دوستويفسكي الكتابة كانت تشدّه شوارع بطرسبورغ والناس للخروج إلى الشارع. أولئك الناس الذين يفكر دوستويفسكي بهم طوال الوقت، وسيبقى يفكر بهم إلى الأبد.

أخذ دوستويفسكي ينظر إلى الناس، وهم يحدقون في واجهة مخزن الحلويات المضاءة. وإلى قرون الشوكولا المعروضة بغزارة ووفرة، وإلى ذلك الشاب بوجهه المصفر المزرق، وإلى نظراته الشرهة: نحو علبة الشوكولا الكبيرة المحزومة بشريط حريري بكل أناقة. وعليه معطف عتيق أخضر اللون غامق، ضيق عند الخصر وياقته مرفوعة حول عنقه، وعلى رأسه سدارة عليها إشارة الموظفين، أما يداه فقد ملأت جيوبه. وفكر دوستويفسكي: «لابد أنه يحلم بشراء البونبونيوركا لحسنائه».

أما ذلك السيد الأنيق الملبس، فقد جلس بذقنه المتدرجة المقسومة إلى قسمين مع سالفيه الوقورين الشائبين، بأنفه المرقش والسعادة بادية على محياه مما يراه من معروضات. أما رتبته فليست أقل من مستشار، وهو طيب القلب ويحب عائلته مع أنه ليس مستعداً أن يقوم بفعل الخطيئة

سراً. وقال لزوجته التي تنتظره ولابنته العروس ولولده المدلل، أنه سيقوم بزيارة لأحد أصدقائه، ويذهب إلى مخزن الحلويات ويبتاع البونبونيوركا ويحملها إلى سيدة قلبه.

وقف دوستويفسكي أمام واجهة المخزن قرب شاب، ودخل المستشار إلى المخزن، وبعد لحظات، خرج حاملاً بيديه علبة الشوكولا الفاخرة، فنظر الشاب إليه بكراهية، وقال بصوت شبه مسموع:

- القذر!

- ماذا بك؟ سال دوستويفسكي. والتفت الموظف إليه وقال:

- أنا لا أوجه كلامي إليك يا سيدي، بل له. وأشار بإصبعه إلى ذلك الرجل الرصين.

- وهل تعرفه؟

- أعرفه. فهو رئيس قسم في دائرتنا، وقريباً سيصبح جنرالاً ونائباً للمدير. أنه حيوان من الدرجة الأولى. لكن لماذا تهتم به؟

- هكذا - أجاب دوستويفسكي - أرجو أن لا تظن أنني سأقدم لك المواعظ، فالشباب المتحمس يغضب بسرعة. لقد كنت أنظر إليك وأفكر إلى أي حد تريد شراء البونبونيوركا.

- وكل ما أملك، ربعاً - أجاب الشاب - ما زال بعيداً يوم العشرين من هذا الشهر. لهذا تراني أقف وأنظر وأذوب من القهر، ولدي أمنية أخرى يا سيدي، هي أن أضرب هذا الزجاج بقبضة يدي، حتى يتساقط كل شيء رأساً على عقب. لدي الأمنية ولا أملك الشجاعة الكافية، فأنا بطبيعتي متواضع وملتزم بواجباتي، ولا تأتيني هذه الشجاعة إلا بعد أن أتناول الكحول.

لم يعرف دوستويفسكي، (من أين وجد هذا الأحمق)، فقدم للموظف لفافة وسأله.

- هل ستبقى هنا طويلاً تخز بنظراتك الشوكولا، وقرن القصب.

- ليس لدي أي عمل أعمله في المساء.

- إذاً لنمشي سوية بعض الوقت.

- إذا كنت ترغب في ذلك يا سيدي؟

وسارا في الشارع المليء بالمصابيح، والمارين وطقطقة الخيل تقرع البلاط بحوافرها، والمارة يضحكون...

وفي إحدى الزوايا - توهجت أضواء أحد المطاعم.

أمام باب المطعم وقف حاجب من العسكر بسدارته المرصعة بخطوط ذهبية، وبشاربيه الأسودين الكثيفين. وقال دوستويفسكي وكأنه يحدث صديقاً له.

- أرجو أن لا تفهمني خطأ، لكن اسمح لي أن أدعوك لطعام العشاء.

- سأعترف بهذا الجميل. وأشار الموظف برأسه موافقاً، وعندما خلع معطفه في المطعم ظهرت بذلته العتيقة النظيفة، وسترته الزرقاء بأزرارها الصفراء وعليها شارات الوظيفة، وبنطاله المنتفخ عند الركبتين. لم يكن المطعم مزدحماً بالزبائن، فاحتل دوستويفسكي وصديقه الجديد طاولة قرب النافذة. وطلب دوستويفسكي من النادل أن يقدم لصديقه وجبة من النقانق مع الملفوف، وزجاجة فودكا، وطلب لنفسه شاياً مع الليمون.

- اعذرني لهذه الضيافة المتواضعة - فلا أملك الآن سوى القليل من المال - قال دوستويفسكي مرتبكاً - فأنا أرى على وجهك أنك تكاد تنفجر وتقول: «أي نبيل هذا، يريد أن يظهر كرمه ونبله بروبل»؟ .. اعترف أنك تفكر بذلك!

- لقد حزرت يا سيدي الكريم. ولو لم تقل هذه الكلمات الآن لنهضت وخرجت في الحال. خرجت خجلاً من ذاتي. لقد كنت طالباً في أرخانغيلسك. صحيح أنني لست لومونوسوف، ولكنني درست سنتين في الجامعة وحلمت بالعلوم والمثل العليا، وقرأت تولستوي، تورغينيف، نيكراسوف، دوستويفسكي. أساتذة الحياة المعاصرة. وشاهدت كوميديا أوستروفسكي في المسرح. بعد ذلك عملت في الإدارة وتحولت تدريجياً إلى مساعد حقير لطاولة الرئيس. ودون أن يقول «في صحتك» شرب الشاب قدح الفودكا الكبير المضلع بشراهة، ثم صبَّ لنفسه من جديد، وبدأ يلتهم الطعام.

- لماذا لا تشرب؟ سأل الشاب.

- لا أريد. - أجاب دوستويفسكي.

- إذاً لا داعي، سيبقى لي أكثر. واسمح لي أن أسأل، من يتشرف ويضيفني؟ من يجب أن أتذكره في صلاتي؟ أرجوك أن تقول. فأنا ألكسندر بيتروفيتش إيفانيتسكي، وعمري خمسة وعشرون عاماً، وحدّق في دوستويفسكي منتظراً الإجابة.

أنا أديب وأدعى دوستويفسكي... أجاب دوستويفسكي هامساً.

ودفع الموظف الكرسي إلى الوراء محدثاً ضجة كبيرة، وقف منتصباً، وعكس وجهه القلِق مشاعر التعجب والدهشة.

- فيودور دوستويفسكي. يا إلهي! ألست في حلم؟ كم أنا أهبل. أنت دوستويفسكي بالضبط؟ أنت كما صوروك في المجلات! وأجلس دوستويفسكي الشاب بهدوء على كرسيه وقال:

-لا داعي لهذه الضجة، لماذا؟ ورشف ما تبقى من الشاي وأشعل سيجارة.



أثناء ذلك، دخل صالة المطعم ضابط في الجيش يتأرجح مخموراً بشاربيه الأشقرين المفتولين بجرأة - ودخلت وراءه فتاة ذات شعر أسود ترتدي فستاناً سماوياً من قماش رخيص، مطرز عند ياقته ببعض القطع البلورية. وارتمى الضابط على كرسي قريب من طاولة دوستويفسكي، وصاح بصوت عال.

- يا سيدة. أرجو أن تأتي إلى هنا بمشية الفرس.

جلست الفتاة ذات الفستان السماوي في مواجهة الضابط، وظهرها إلى دوستويفسكي. وهرع النادل إلى الضابط.

اقترب إيفانيتسكي برأسه من دوستويفسكي وقال:

- أريد أن أقول لكم بعض الكلام الشاعري يا فيودور ميخائيلوفيتش. «سعيد من هو مؤمن، ويحس بدفء الحياة»، أما أنا فلا أستطيع أن أؤمن، وفي رأسي لا توجد أية أفكار. لقد أكلت الإدارة كل ما في رأسي. وضحك قليلاً وأردف بصوت غير معبر، بالنسبة لتساؤلك يا سيدي النبيل في العدد 342 من شهر كانون الثاني في هذا العام، أود أن أخبرك بما يلي: «أن مثل هذا الأدب الذي أنشغل به كل يوم... حان وقت انتحاره.. كنت سابقاً أبحث عن الأجوبة لأسئلتي في الكتب الجيدة، والآن أجد كل الأجوبة»... وصبّ قدحاً من الفودكا وشربه، فكرت أني سأجد في الحب المثل العليا - أن أبني حياة عائلية مع حبيبتي في عش متواضع. في العش - الجنة. لكن الحبيبة، لا ترغب في العش - الجنة، بل تريد أن أقدم لها شقة بثلاث غرف، وراح تاجر غني جديد يتودد إلى حبيبتي «درس في كلية التجارة»، وأنا لا أستطيع أن أقدم لها حتى هدية متواضعة، وظهرت في عينيه دموع مخمورة، وقال بعناد - لا أستطيع... أنت بنفسك شاهدت يا فيودور ميخائيلوفيتش بأي شوق كنت أنظر إلى العلبة

المحزومة بشريط الحرير. شاب عمره خمسة وعشرون عاماً، ويتقاضى خمسةً وعشرين روبلاً، وعليَّ أن أدفع أجرة الغرفة، المليئة بالصراصير، موضوع قريب إليك يا فيودور ميخائيلوفيتش.

ومثل تلك السيدة.. وأشار بأصبعه إلى السيدة الجالسة مع الضابط - تثير القرف. لهذا سأشرب من أجل صحتك. وصبّ القدح الأخير ووضع مرفقيه فوق الطاولة، وأسند رأسه إليهما.

جلس دوستويفسكي وأمامه الكأس الفارغة، مقطباً جبينه، ناظراً إلى عنق الشاب المخمور الملتوية، وأحسّ بالضيق والارتباك. الارتباك من نظرات النادل الفضولية، الذي راح يمرّ بالقرب من الطاولة، وينظر إليهما بوقاحة. والارتباك من أنه كان يرى أمامه روحاً بشرية عارية، قد أهدرت قواها الحياتية بشكل مأساوي.

وقطع النادل سلسلة أفكاره قائلاً:

- ألا تريد يا سيدي شيئاً آخر؟ واسمح لي أن أطلب منك إيقاظ نديمك. وأشار بمنديل قذر نحو الموظف، فالزبائن الأكثر نبلاً ينفرون من هذا المنظر.

- هل تتوجه بحديثك إليّ؟! - سأل دوستويفسكي وشدد على نطق الكلمات.

- يا سيدي أنا بخصوص حسابكم يا سيدي - قال النادل وهو يبحث عن مخرج له - إن صاحب المطعم مستاء، أما نحن فعملنا صغير للغاية يا سيدي.

- كم تريد مني؟

- روبلين وعشرين كوبيكاً.

قدم دوستويفسكي له قطعة ورقية من فئة الثلاث روبلات وقال:

- احتفظ بالبقية لنفسك.

- أشكر سعادتكم، مع الإجلال يا سيدي - وابتعد.

وعلى الطاولة المجاورة، كان العسكري برتبة نقيب يشرب الكونياك بأقداح كبيرة، ويستضيف المرأة الجالسة معه، وهو يغني بصوت بشع مقطعاً من «يلينا الرائعة» ثم يسألها:

- ألا ترغبين يا مادموزيل بتذوق الدراق؟

- أفضل تفاحة من نوع أنطونوف.

- هذه ضيافة بسيطة، لكني أقول لك الصدق، إن الدراق يتناسب مع النساء أكثر بكثير من التفاح.

أكدت المرأة ثانية على رغبتها في أكل التفاح، أما الضابط فظل على رأيه مصراً.

وانقطع دوستويفسكي عن أفكاره، وتطلع إلى المرأة وارتعش قلبه عندما عرف فيها ناستينكا. إنها هي، ناستينكا التي أشفقت عليه ودعته بالبائس. كم المدينة كبيرة، وكم طرقاتها البشرية ضيقة.

- هاي - صرخ الضابط - . قَدِموا لنا الدراق بسرعة. لكن لم يكن يوجد دراق في المطعم.

- ليأخذكم الشيطان، - صرخ الضابط مهتاجاً - شناعة، أين توجد الفواكه عندكم! أين صاحب الفم الكبير؟!... أسالك أنت.

- لدينا تفاح منقوع، وإجاص محلي يا سيدي. - قال الخادم.

- أريد إجاصاً. وهرع النادل لجلب الإجاص.

- عبثاً تفعل ذلك - قالت المرأة - لو طلبت لي تفاحاً منقوعاً لكان أفضل.

- أنا لا أسألك يا مخلوقة - زأر الضابط - مهمتك أن تسيري على قوائمك الخلفية ككلب...

وليست مهمتك أن تفكري. وأختك أسوأ من حشرة. اشربي، وصبّ قدحاً من الكونياك، وضرب بيده على الطاولة. انصاعت المرأة لأمره بقرف ظاهر.

- سأشرب هذا القدح الأخير، لقد امتلأ جوفي، والله إنني مخمورة بطبيعة الحال. الأفضل لو نذهب إلى البيت.

- إلى أين؟ سأل الضابط بعجرفة - أين بيتك؟

- لقد كنت عندي البارحة.

أحضر النادل إجاصتين دبقتين على صحن ووضعهما على الطاولة.

وأمسكت ناستيا الإجاصة بطريقة لا تتناسب مع المطعم، وبدأت بأكلها. وشرب الضابط قدحاً آخر.

وفجأة خطف الإجاصة الثانية ورماها في وجه المرأة فأصابتها ما بين العين والأنف والخد والذقن، وامتلأ وجه ناستيا بالسائل السكري.

- كيف لا تخجل من ذاتك يا سيادة النقيب؟ هل يجوز ما تفعله؟ هذه إنسانة، امرأة، وأنت تهينها.

وقف دوستويفسكي بحدة أمام الضابط بعينيه الغاضبتين، وبيديه المرتجفتين.

- بأي حق تتدخل فيما لا يعنيك يا سيدي الكريم؟ ومن أنت؟

واتسعت عينا ناستيا وهي تنظر إلى دوستويفسكي. لقد عرفته واحمرّ وجهها من الخجل. لم تخجل من الإهانة التي ألحقت بها، بل من رؤية دوستويفسكي لها.

- أنا لست غاضبة عليه. قالت بصوت متحشرج من الدموع المنهمرة على وجنتيها. لست غاضبة. لا تقلق يا فيودور ميخائيلوفيتش - وأضافت بذّلة - وهل نتجرأ نحن على الغضب.

وآفاق الموظف من نومه، واقترب من دوستويفسكي.

- من أنا - قال دوستويفسكي للنقيب - أنا ضابط مسرح وكرجل أكبر منك سناً أقول لك لا يجوز التعامل بهذه الحماقة مع النساء. فأنت تعاملها بوقاحة، كونها كائناً ذليلاً محتاجاً. كلا لا يجوز ذلك.

أمسك الموظف دوستويفسكي من ذراعه وقال:

- ماذا بك يا فيودور ميخائيلوفيتش، هل تناقشه؟ وهل من آمثاله يفهمون شيئاً؟ هم لا يفعلون إلا الجلافة. وأنت يا سيادة النقيب عليك أن تعرف، إنه شرف عظيم لك أن تتحدث مع فيودور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي شخصياً. أنا وإياكم سنموت. ولن يبكينا أحد. أما مؤلفاته فستبقى خالدة.

وفتح الضابط عينيه نظر بدهشة حادة إلى دوستويفسكي. وقال بعد أن وقف على قدميه:

- ماذا بكم يا سادة؟ أمن أجل هذه السخيفة توبخونني! أنا أقدم اعتذاري بكل سعادة لقاء التعارف معكم فقط، أنا مخمور كحيوان، وأعتذر أمامكم بكل صدق. لكن أن اعتذر من هذه العاهرة فلا يسمح لي شرفي بجرح كرامتي: شامبانيا أيها النادل! وهمس الموظف:

- فيودور ميخائيلوفيتش، إن النقيب على حق، فهو ليس مذنباً. هل هو يفهم ذلك. ليس لديه مثل هذا العقل. وهزّ دوستويفسكي كتفيه وقال:

- أعتذر، لا أستطيع أن أشرب.

- واأسفاه! - حزن الضابط - أين خدمت يا سيدي.

- في خطوط فوج سيبيريا.

- سيبيريا. فأنت إذاً ابن البلد، موسيقا، سلام خذ، أورا، أورا - أورا.

ورد دوستويفسكي على التحية بإيماءة من رأسه، واتجه نحو المخرج.

وبينما كان يرتدي معطفه، هرعت إليه ناستيا بوجهها الذي يشبه وجه مجنونة، وأمسكت يده، وجرتها إلى صدرها وقالت:

- سأذكرك، سأذكرك أبد الدهر. والتفتت جانباً، ثم هرعت راكضة إلى صالة المطعم.

☆☆☆

وكان لقاء أخير مع ناستيا.

قبل وفاته بقليل، ألقى دوستويفسكي كلمة الأدباء في الأمسية الخيرية التي أقيمت في صالة جمعية الدائنين المقابل لمسرح ألكسندروفسكي. وأُستقبل الشباب كالعادة ظهوره على خشبة المسرح بتصفيق حاد مرحبين به. وقرأ فصل «اعتراف القلب الحار» من رواية «الإخوة كارامازوف». بوضوح وعاطفة مؤثرة، وكأنه يحدث المستمعين عن سر عميق، وكان صوته الأصم مسموعاً حتى المقاعد الأخيرة من القاعة.

وهنأه البعض كفنان، بكل صدق، وآخرون بحسد ظاهر.

ارتدى معطف الفراء، وهبط الدرج محاطاً بالطلاب والطالبات. فجأة ظهرت من خلف الأعمدة هيئة نسائية.

- فيودور ميخائيلوفيتش، ورن صوتها المرتعش برجاء.

- ناستينكا! اندهش دوستويفسكي، لم يعرفها في البداية، كيف لا يعرفها، لقد عرفها ولكن لم تكن كالسابقة. كانت ناستيا تقف أمامه امرأة شابة ترتدي لباسها بتواضع، من دون تلك القبعة السخيفة، أو الحواجب المدهونة، ومن دون البودرة، بل في فستان أبيض مع معطف قصير، بوجه تعب، لكن ليس شاحباً، بل وردي اللون، وعيناها تملك الحق أن تنظر إلى كل إنسان بافتخار.

- كنت مارة من هنا يا فيودور ميخائيلوفيتش، فشاهدت الإعلان واسمك عليه، فسألت الخادم: «أين أستطيع شراء تذكرة للأمسية، ولحسن حظي وجدت تذكرة، لكن في البلكون وفي آخر الصفوف، جلست واستمعت إليك فقط، استمعت وبكيت.

أخذ دوستويفسكي يدها وداعبها، فارتبكت ناستيا، وابتعد الحاضرون عنهما بلباقة.

- أين أنت الآن. كيف حالك؟ أخبريني هذا ضروري. نعم ضروري أن أعرف.

- أعمل في ورشة خياطة، فبعد أن تشاجرت مع الضابط في ذلك المساء، لم أستطع استقبال الزوار. لقد سئمت ذلك.

- لنخرج إلى الهواء الطلق يا ناستيا، فأنا تعب جداً، هل ترافقينني؟

- وكيف لا، بل بكل سرور. فأنا شاكرة لك طوال حياتي.

وخرجا إلى شارع نيفسكي بروسبكت، ولفحهما الهواء المسائي الرطب وضجة حياة الشارع والطواقم، وأخذ دوستويفسكي ناستيا من مرفقها وسارا.

- حدثيني، استعجلها دوستويفسكي - فربما لن نلتقي ثانية - وارتعش مرفق ناستيا - ليس لأنني لا أرغب في ذلك، بل لأننا جميعاً نسير تحت حماية الرب. أنا عجوز مريض، حتى أنني سافرت للخارج إلى ألمانيا من أجل العلاج.

- ماذا بك؟ - سألت ناستيا بحزن - دع الله يعطيك قرناً من العمر.

- تكلمي عن نفسك يا ناستيا.

- أنا أعمل في ورشة خياطة، استأجر أنا وصديقة لي شقة في شارع كرونفيرسكايا، ولدي خطيب، - قالت ذلك بكبرياء خاص - يعمل حداداً، واسمه - ابتسمت قليلاً، - فيودور مثل اسمك.

كنت ذاهبة إلى العمل فشاهدت الإعلان والعربات المزدحمة أمام المدخل - تاهت ناستيا في حديثها، ولذلك صمتت فجأة.

ونظر دوستويفسكي إليها بطرف عينه - كان سعيداً بلقائها، حتى أنه كان يرجف من السعادة.

ومن جديد بدأت ناستيا الحديث.

- منذ عدة أشهر قدمت لنا ممثلة مهمة من مسرح ألكسندروفسكي معلومات كاملة عنك - كانت تخيط فستاناً عندنا - وقالت لنا أين يمكن شراء مؤلفاتك. اشتريت رواية «الجريمة والعقاب»، وقرأتها بصوت مسموع، إذ كانت فتيات أخريات يأتين لسماع الرواية.

- وهل أعجبتكم؟ - ابتسم دوستويفسكي فرحاً، وشعر بأن الألم يزول عن صدره:

- إنها سماوية، أتعرف، لقد اقتلعت أفئدتنا، تحلّلون وتصيبون.

- لم تكن ترى ناسيتا غيره تحت أضواء المصابيح وضجيج الناس في الشارع، وكما في تلك الليلة الماضية البعيدة، ارتمت بوجهها الندي، النضر على وجهه وقبلته على خده.

كان الناس، صغاراً، كباراً يسيرون على شارع نيفسكي بروسبكت، وكل منهم مشغول بأعماله وأفكاره: هؤلاء الناس الذين تعودوا على رؤية مثل هذه المشاهد العامة. لم يهتموا مطلقاً برؤية امرأة شابة، وعلى رأسها منديل، تقبل رجلاً عجوزاً وسط الشارع.

ومن يندهش من رؤية هذا المشهد حقاً؟!.

# بيان عن الحرب

كانت ريح منعشة تهب من البحر، والغيوم تطبق على الشمس من كل الجهات، وعندها كانت الشمس السعيدة الكبيرة تنفذ من بين الغيوم بين الفينة والفينة، تنعكس أشعتها على القناطر وعلى زجاج المخازن ونوافذ البيوت.

شعر دوستويفسكي بالنشاط يدب في جسده وأحس أنه قد أصبح أصغر سناً، إذ كان يتنفس بعمق من هواء شهر نيسان الربيعي. ورغب في السير على قدميه، بعد عمله المرهق طوال الليل، رغب أن يسير بعزم الشباب - مثل هذين الطالبين في الكلية الحربية واللذين يضحكان من شيء غير معروف. سار في الشارع وقد امتلأ صدره بالحب والهدوء لشارع نيفسكي بروسبكت. كان الشارع يمتد مستقيماً، كأنه يقسم المدينة إلى نصفين. لم تستطع آثار برلين ولا جمال روما أن تسحر قلب الكاتب، كما سحرته أبنية شارع نيفسكي بروسبكت.

جسر أنيتشكوف والخيول البرونزية التي صنعها «كلود توم» في الأربعينيات ومسرح ألكسندروفسكي، وغوستيني دفور بحانيته وموضته - آه إن كل شيء يحيط به سعيد بالنسيم وشمس الربيع.

فجأة تغير كل شيء، إذ تجمع الناس حول البيان الرسمي الذي علق قبل لحظات على واجهة مخزن الكتب، وسمع دوستويفسكي أصواتاً هائجة والكلمة التي خفق قلبه عند سماعها، تلك الكلمة التي تأرجحت في الهواء، كلمة الحرب.

- هل هذا بيان عن بدء الحرب؟ سأل دوستويفسكي شاباً أحمر الخدين في لباس مهندس طرقات.

- نعم، عن الحرب مع تركيا. وموقّع من الإمبراطور في كيشينيوف.

وقرأ المهندس بصوت مسموع البيان الذي يدعو القوات المسلحة الروسية، أن تشهر سيفها من أجل عمل مقدس، تحرير السلافيين من الاضطهاد التركي الذي دام قروناً عديدة.

- سنحاصرهم من كل الجهات. هذه نهاية الأتراك. هذا ما قاله رجل رصين ملتحٍ، يرتدي بذلة جوخ زرقاء بصوته الأجش.

- لقد كسر الأتراك العرب... ويقولون أن الجيش التركي مسلح بالبنادق الإنكليزية، إضافة لتعصبهم ولإيمانهم الأعمى، ولدعم الإنكليز والألمان لهم. هذا ما قاله سيد كبير في السن، يرتدي معطفاً مهترئاً. واعترض حديثه ضابط شاب من سلاح المدفعية ذو شاربين أسودين رفيعين.

وأصغى إليه بعض الطلاب وطلاب المدارس الثانوية وهم يشاركونه مشاعره، وقال ذلك الضابط بحماس شديد مضيفاً إلى كل عبارة من عباراته «هكذا إذاً».

- عبثاً تلومون العرب، فالعرب شعب شجاع، لكنه لم يتعود على الحرب الطويلة الأمد. هم ثوار شجعان، هذا ما أكده الجنرال تشرنيايف، «هكذا إذاً» يا سيدي الكريم. صحيح أن البندقية الإنكليزية أفضل من بندقيتنا، فهي ترمي لمسافة أبعد، لكن - الجندي التركي مجرد راع أمام الجندي الروسي، والجندي الروسي، نظامي مؤمن بواجبه، إضافة أنه يقوم بعمل مقدس «هكذا إذاً»... والمدفعية الروسية هي الأولى في أوروبا من حيث دقة الإصابة، «هكذا إذاً»...

وقرب كاتدرائية كازانسكي، جمد تمثال الفيلد مارشال كوتوزوف وتمثال - كلاي دي تولي في عظمتهما البرونزية.

دخل دوستويفسكي المعبد. دخل ليصلي من أجل نعمة النصر لروسيا العظيمة. وهناك كان كثير من النساء والفتيات الصغيرات.

استند بظهره إلى أحد الأعمدة وراح يفكر: «هذا ما كان متوقعاً. الحرب! كم سيموت من الجنود؟ كم ستترمل من النساء وكم سيتيتم من الأطفال؟.. لكن لا يجوز أن نترك الباشا بوزق التركي، يدمر قرى بلغاريا المزدهرة، وأن يحرقوا الكنائس ويغتصبوا النساء، وأن يقتلعوا العيون من المآقي.

هذه ليست حرباً ذات مقاطع مغرضة، بل من أجل إنقاذ الإخوة السلافيين. إنها حرب مقدسة وعادلة.

صلّى دوستويفسكي، ورسم إشارة الصليب على صدره، واقترب من ضريح موتوزوف، الذي انحنت عليه المتعبدات لتحافظ على راحة نومه الأبدي، وترددت أبيات من شعر بوشكين في أذني دوستويفسكي.

مطأطئ الرأس. أقف أمام الضريح المقدس...



أ. بوشكين - لوحة الفنان كيبرينسكي

# محضر الوجهاء

تلقى دوستويفسكي دعوة للمشاركة في حفل افتتاح السوق الكبير، الذي أُقيم لمساعدة الإخوة السلافيين، الذين عانوا كثيراً من ويلات الحرب. وكانت السيدات المتأنقات بلباس السهرات والحفلات، يبعن كافة أنواع الخزف الصيني والأواني المصنوعة من قبل العاطلين عن العمل، أكواب، مزهريات، تماثيل وكان بعضهن يقدم الشمبانيا بخمس روبلات للكأس الواحدة.

اقتصر المدعوون على النبلاء والأرستقراطيين، الذين راحوا يتبخترون بألبستهم الرسمية، إذ كانت تلمع في كل مكان نجوم الوجهاء، وكتافيات الجنرالات الذهبية.

وكان من بين الحاضرين إنكليزي «حاز على اهتمام كافة الحاضرين. كان حليق الذقن بسالفين مقصوصين بدقة متناهية، ينظر إلى الجميع بعينيه الزرقاوين وينحني رداً على التحيات. وأصبح معروفاً لدى الجميع أنه عضو في البرلمان الإنكليزي» وأحد كبار عشاق الفنون، هذا ما صرحت به السيدة التي يقيم في منزلها. وكان يتكلم الروسية بطلاقة حتى أنه شعر في بطرسبورغ كأنه في منزله.

هناك أجنبي آخر، حاز على اهتمام الحضور، وهو الدبلوماسي الفرنسي بذقنه الإسبنيولية، الذي يقف بظرافة لطيفة، ويتحدث مع الوجهاء.

كلاهما في لباس رسمي أنيق وقد وضع كل منهما قرنفلة فوق ياقة بزّته قرنفلة حمراء غامقة في عروة بذلة الإنكليزي، وبيضاء ناصعة على بذلة الفرنسي.

وكان دمتري فاسيليفتش غريغوروفيتش، الذي قدم مساعدته للإخوة السلافيين بشربه أربع كؤوس من الشمبانيا، يتحدث منتعشاً مع الفرنسي الذي يبتسم ويضيّق من عينيه.

- نعم، نعم، قال غريغوريفتش - أنتم الفرنسيون خطوتم إلى الأمام في طريق التقدم والحضارة. هذا لا يحتاج إلى نقاش، تلك هي الحقيقة فنانيكم (ويقف لسانه داخل فمه) أوه معلمون عظماء في تصوير الطبيعة... «الفطور على العشب» لإدوارد مانيه - حقيقة أقول، أن هذه اللوحة كلمة جديدة قيلت في الفن، أية شجاعة لديكم في تصوير النساء - العاريات وأية ألوان مؤثرة ساحرة. أما أدبكم.. وأشار غريغوروفيتش بعينيه إلى الأعلى.

انحنى الفرنسي ووضع يده على قلبه شاكراً وقال:

- أستطيع الرد على الإطراء هذا بإطراء مماثل يا مسيو غريغوروفيتش. إن الأدب الروسي الجديد استطاع أخيراً الدخول في عداد الآداب الأوروبية، فنحن نقرأ بكل سرور - مؤلفات كتابكم الموهوبين من الدرجة الأولى أمثال السادة تورغينيف، تولستوي، دوستويفسكي، وتوقف لحظة ثم أضاف: ومؤلفاتك أيضاً.

اعتبر غريغوروفيتش أن مراسيم التعارف قد انتهت، فودعه الفرنسي المهم بانحناءة، وتوجه صوب الإنكليزي، وبعد دقائق، راحا يتحدثان بانتعاش.

- أظن يا سير - قال غريغوروفيتش - أن الأدب الإنكليزي، هو أقرب الآداب إلى الأدب الروسي، ففي عصرنا، عصر البخار والسكك الحديدية، عصر الميكانيك، أستطيع القول، أن أدبكم يحمل راية

إنكلترا العجوز الطيبة، نعم يرفعها عالياً إلى الأبد. إنكلترا شكسبير (وأراد أن يضيف بايرون لكنه تراجع عندما لاحظ سعادة الإنكليزي الفائقة، فلم يقدم على ذلك) والكتّاب مثل وليام تيكريه وتشارلز ديكنز.

- لست من عشاق أدب ديكنز - قال الإنكليزي واحمرّ قليلاً - ربما كان ديكنز كاتباً جيداً، لكنه أحياناً يسمح لنفسه بالكشف عن عيوب المجتمع الراقي.

- أوه، طبعاً، إن ما قلته صحيح يا سير، لكن اسمح لي أن أقول بأنه لا يوجد مثل ديكنز من يستطيع سبر مشاعر الإنسان الخفية المقدسة، فهو قريب جداً إلى الأدب الروسي من هذه الناحية.

- أنا لم أقرأ سوى القليل من أدبكم - قال الإنكليزي متكبراً - ولا أستطيع الحكم عليه فهو ما زال أدباً يانعاً جداً.

- لكن أرجو يا سير أن تسمح لي - قال غريغوروفيتش ملاطفاً روحه، ومرسلاً الإنكليزي إلى الشياطين - أقول، مع ذلك فقد قدم الأدب الروسي شيئاً ما للأدب العالمي.

- لم ألاحظ ذلك - قال الإنكليزي - فأنتم متعصبون جداً وغير منطقيين، من الصعب توقع ما تستطيعون فعله.

وسمع دوستويفسكي أطراف الحديث، فاقترب وتدخل مباشرة.

- مع أنني لا أملك الحق أن أتقدم إليكم، لكن من حقي كأديب روسي أن أقول لكم - واتجه نحو الإنكليزي - أنت تقول أننا لامنطقين ومتعصبون، وأنا أوافقك الرأي من وجهة نظرك نحن حقيقة لامنطقيون ومتعصبون لأننا لا نفكر بالخير لإنسان واحد، بل لخير البشرية جمعاء. إن أدبنا - لا تنظر يا مستر إليّ بعينين مندهشتين - أدبنا يعكس في ذاته

طموحات وأماني العبقرية الروسية. وتذكر يا مستر أن هذه العبقرية تحترم عبقريات الأمم الأخرى، تحترمها...

- أوه: - قال الإنكليزي مندهشاً، - هذا غير معقول.

- لقد نطقت بالكلمة الصحيحة - (غير معقول) - بالضبط غير معقول. إن شكسبير، ديكنز، غوته، هيجو، بلزاك، فولتير، قريبون منا. نأخذ ونحترم كل هذه العبقريات، ونبقى نحن روساً. نعم! نعم روس يا مستر. ونصنع فكرتنا العالمية، ولنا نحن تعود الكلمة الجديدة، التي سنقولها للبشرية جمعاء.

- هذا كثير جداً، حاول الإنكليزي بكل أعضاء جسده أن يظهر استخفافه الكامل بكلام المتحدث المتحمس، فنفخ صدره ووضع عدسة مكبرة على عينه، وسأل لاشعورياً، بعد أن التقت عيناه بعيني دوستويفسكي البراقتين..

- أريد أن أعرف مع من لي شرف الحديث الآن؟ سيكون لطفاً منك أن تشبع فضولي، وأن تذكر مؤلفاتكم الشخصية.

- أظن أن لا فرق عندك - أجاب دوستويفسكي - فكنيتي دوستويفسكي، لن تخبرك شيئاً، كونك لا تقرأ الأدب الروسي، كما ذكرت منذ لحظات للسيد غريغوريفتش، أنك على غير علم بالأدب الروسي. وأدار دوستويفسكي وجهه وابتعد.

لم يلاحظ المتحدثان خلال غمرة نقاشهما، أنه تشكلت حولهما حلقة من المستمعين، فكان منهم الأكثر وجاهة غير راضٍ عن النقاش الحاد، وآخرون استمعوا بمتعة إلى ذلك النقاش الأدبي.

وتوجه الدبلوماسي الفرنسي إلى غريغوروفيتش، بعد أن ابتعد دوستويفسكي وقال له:

- لقد قرأت وسمعت الكثير عن السيد دوستويفسكي، وأرجو أن تعرفني به، فهو كاتب مبتكر.

- نعم - قال الإنكليزي - ليس مبتكراً فقط، بل ومولع أيضاً، إنه روسي حقيقي.

وأرادت سيدة البيت، التي يقم لديها الإنكليزي أن تزيل الانطباع الكريه الناتج عن النقاش فاقتربت بفستانها الأبيض، الذي تتلألأ عليه قطع الماس وقالت:

- سير، إن دوستويفسكي رجل مريض، مصروع، وعلى المرء أن يكون متسامحاً معه. نعم متسامحاً. ولهذا يستقبل في المجتمع الراقي. حتى أن الأمير ميشيرسكي والمستشار السري بوبيدونوستسيف يحترمانه، ويهتم به شخصياً الأمير المعظم ولي العهد.

- أوه، هذا شيء آخر، لم أعرفه من قبل! - قال الإنكليزي مرتبكاً.

في هذه الأثناء، احتل دوستويفسكي والدبلوماسي الفرنسي ركناً فارغاً هادئاً (فقد قدمهما غريغوريفتيش إلى بعضهما بعضاً وانسل منسحباً حتى لا يكون ثالثاً زائداً كما عبر بنفسه) وأشعلا السيجار وراحا يتحدثان عن الأدب الفرنسي، ولم يخفِ الفرنسي إعجابه بتلك الملاحظات التي ذكرها دوستويفسكي حول الأدب الفرنسي.

- أنا سعيد - كون هذه الأمسية تميزت بالتعرف إليك، واعترف الفرنسي: نحن الفرنسيون نقدر عالياً كل شيء رفيع جميل.

- أستطيع القول أن الفرنسيين أقرب إلينا من سائر الأمم - قال دوستويفسكي - فأنا مثلاً فتنت وأنا صغير بمؤلفات الأدب الفرنسي، بلزاك، هيجو، جورج ساند. لكن هناك ملاحظة أريد أن أقولها، إن الفرنسي المتوسط، تبرجز كثيراً، إنه ينسى مجد فرنسا الأبيض، يتاجر

في المحلات الصغيرة الوضيعة ويفقد إحساسه بالروائع. واعذرني أن أقول: أنتم الآن في دور الشيخوخة، وهذا ليس جيداً، فعندما تشيخ الأمة، تسهل قيادتها بأي مقود كان. أصبح وجه الفرنسي حزيناً، وأشار موافقاً برأسه.

- أنت تقريباً على حق يا مسيو دوستويفسكي، تقريباً على حق، فرنسا المسكينة تحتاج لأصدقاء حقيقيين وأقول لك فيما بيننا، أنا على يقين من أن فرنسا في حال اتحادها مع وطنكم فقط، تكون سعيدة وتأتمن لمستقبلها، وقطع حديثهما عجوز بنجوم وبزة رسمية مذهّبة قائلاً:

- عزيزي الفارس، لقد اجتمعنا لنلعب الويست [1]، أرجو أن تشاركنا اللعب.

نهض الفرنسي وانحنى لدوستويفسكي، الذي ظلّ واقفاً حتى انتهى من تدخين سيجارته، وسار غير راض عن هذه الأمسية، وخاصة عن نقاشه مع ذلك الإنكليزي وقال في نفسه: «لابد أن يكون محموقاً الآن، لأنني دعوته بمستر فقط، وليس بسير».

ومرّ بالقرب من إحدى الطاولات المليئة بالأواني الخزفية والموبسات [2] المصنوعة من الجبس. وهنا رأى وجه ألكسي بيسيمسكي الساخر بلحيته الشائكة. واقترب دوستويفسكي منه وحيّاه، فرد بيسيمسكي التحية مصافحاً دوستويفسكي، وتابع حديثه مع السيدة البائعة وعيناه تلمعان باستهزاء وسخرية.

هكذا يا سيدتي تريدين إقناعي أن سعر هذا الكلب المرعب، ثلاثة روبلات مع أنه لا يساوي أكثر من خمسة كوبيكات في يوم سوقه.

- لكن، أرجو يا مسيو بيسيمسكي، أن تفهم أن هذا موبس خاص، فهو سيذكرك دائماً بتضحيتك المادية من أجل إخوتنا السلافيين.

- قالت السيدة.

---

[1] الويست: نوع من أنواع لعبة الورق. كلمة إنكليزية الأصل. م.

[2] موبس كلمة ألمانية وتعني تمثالاً لكلب قصير الشعر، يستعمل لتزيين الصالونات. م.

- ميرسي، ميرسي، وانحنى بيسيمسكي ساخراً - لهذه التضحية من دون دماء، لكن كان من الأفضل لو عرضت تماثيل جبسية لفينيرا، فهذا سيبعث مشاعر اللذة لدى الشباب والأرامل.. أما هذان واسمحي لي بقول ذلك، فهذا كلب سخيف، وتطلبين ثلاثة روبلات ثمناً له.

- لكن هذا في مصلحة، أريد أن أقول لمصلحة - تلعثمت السيدة.

- إذا لم يعجبك هذا الموبس، فتستطيع شراء هذه المزهرية الخزفية بخمسة روبلات أو باقة من ورد القرنفل بثلاثة روبلات.

- أوه، - ابتسم بيسيمسكي - إنك يا سيدتي تثيرين إعجابي فأنا لا أستطيع وضع هذه المزهرية إلا في المطبخ، كان من الأفضل أن تبيعي عدة إصلاح، فهي تفيد في أعمال البيت في أسوأ الأحوال.

ومن الأفضل أن تضعوا على طاولاتكم، أقداحاً خيرية، ليستطيع الزوار الوجهاء أن يضعوا فيها ما يقدرون عليه، ربما كان ذلك «سبباً» لتمسُّكك وولعك الكنائسي.

كادت السيدة تخرج عن طورها، فلم تجب بشيء، وهذا ما ابتغاه بيسيمسكي. عندئذٍ أخرج من جيب بنطاله محفظته العتيقة المهترئة وسحب ورقة نقود من فئة الثلاث روبلات وقدمها للسيدة، وحمل الموبس من رأسه بإصبعيه الاثنتين.

- لكن أرجو ألا تغضبي يا سيدتي... سآخذ، مسخك هذا. ولي شرف الانحناء لك يا سيدتي.

وقال بسيمسكي لدوستويفسكي في المشلح، وهو يرتدي معطفه.

- أنا لا أحب هؤلاء الوجهاء «الخيرين» يا فيودور ميخائيلوفيتش. يصيبني القرف من تصرفهم، لأنني أعرف من جمهور موسكو الأرستقراطي، أن هذه الأموال ستبقى في جيوب اللجان والموظفين، ولن يصل للإخوة السلافيين «من الناقة - الأذن».

وخيمت فوق بطرسبورغ ليلة معتمة غائمة، وكانت بعض المصابيح مشتعلة على الشاطئ، واجتاز دوستويفسكي وصاحبه بناء إدارة البحرية، ووصلا شارع نيفسكي بروسبكت، وهناك وجداً طفلة شحاذة تقف قرب البوابة وتصيح: - أعطوني من أجل المسيح.

ووضع كل من الكاتبين قطعة نقود من عشرين كوبيكاً في راحة يدها الممدودة، وبعد أن سارا قليلاً توقف بيسيمسكي وقال:

- انتظرني قليلاً يا فيودور ميخائيلوفيتش. وعاد إلى الطفلة بخطى سريعة، وأخرج من جيب معطفه الموبس، الذي اشتراه بثلاثة روبلات، وقدمه للطفلة...

وعندما عاد إلى دوستويفسكي، تنفس الصعداء، وقال:

- يبدو حقاً أنه عمل خيري.



سانت بطرسبورغ

# الطالبة الجامعية

كان دوستويفسكي قد ارتدى معطفه وراح يبحث عن قفازيه في جيوبه، وقد عزم على الخروج، عندما سمع دقات جرس البيت. دق الجرس دقة خفيفة، ثم راح يخفق.

فتح دوستويفسكي الباب وشاهد فتاة ليست طويلة، نحيفة ويانعة جداً، لا يتجاوز عمرها التسعة عشر عاماً، ترتدي معطفاً ذا ياقة من فراء قديم، بني اللون، وعلى رأسها قبعة من ذلك الفراء (ربما كان هذا الفراء من بقايا معطف والدتها).

- هل يقيم هنا السيد فيودور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي؟ سألت الفتاة بحيرة.

- نعم، بماذا أستطيع أن أخدمك؟ تورَّد خداها قليلاً، وقالت:

- يبدو أنك ذاهب إلى مكان ما، لقد جئت في وقت غير مناسب.

- نعم فأنا ذاهب بخصوص عمل مهم، لا يجوز تأخيره، بالضبط لا يجوز تأخيره، وعليَّ...

- آه كم ذلك مؤسف - أجابت الفتاة في حيرة من أمرها - وأنا لا أملك الوقت الكافي، فالساعات محدودة، إضافة إلى أنني أعيش في الطرف الآخر من المدينة، وعليَّ أن أسافر غداً.. إن ذلك يبدو محرجاً...

- نعم أنا مشغول - قال دوستويفسكي، محاولاً ألا ينظر إليها (حتى لا يرق قلبه، فإن فعل، فسيبقى في المنزل لا محالة). وتوقع دوستويفسكي أن تبتعد الفتاة وتخلي سبيله، لكنها ظلت واقفة، لا تفسح مجالاً له ليخرج من الباب.

- أقول الصدق، لا وقت لدي. - قال دوستويفسكي بشيء من الاعتذار.

- وأنا كذلك، لا وقت لديَّ، ولا أستطيع أن آتي إليك مرة أخرى، فأرجوك أن تبقى، فلدي حديث مهم، بل مهم جداً. لقد فكرت كثيراً قبل أن آتي إليك - لكنه واجب علي، وطالما أنه واجب... - ولم تنه كلامها ورمقت دوستويفسكي بنظرة من عينيها الرماديتين الواسعتين... وعندما التقت نظراته بنظراتها، فهم دوستويفسكي أنها فعلاً قد جاءت من أجل شيء مهم، وهو لا يملك الحق في أن لا يستقبلها.

- حسنٌ، تفضلي - وابتعد جانباً ليفسح الطريق لها - هناك العلاّقة، تستطيعين تعليق معطفك عليها، يبدو أن الرياح شديدة في الشارع؟

- ربما، لم أعر ذلك انتباهي. وهذا ليس له أهمية. وخلعت معطفها فبدت نحيلة جداً، في فستانها البني ذي الياقة البيضاء، أكثر مما توقّع دوستويفسكي، الذي فكر في نفسه: «لا جسد لها تقريباً».

في المكتب، قدم لها دوستويفسكي كرسياً، بقي واقفاً يفرك يديه إحداهما بالأخرى، ثم قال:

- حسنٌ، أنا مصغ إليك.

جلست الفتاة على الكرسي منتصبة الظهر، وهي تراقب كل حركة من حركات دوستويفسكي.

- آه، لو جلست يا فيودور ميخائيلوفيتش - قالت الفتاة - عندئذٍ أستطيع الكلام بحرية أكثر، من الضروري أن أرى وجهك.

وجلس دوستويفسكي بعد أن ابتسم، وطلب الإذن بأن يدخن سيجارة.

- قبل أن آتي إليك حضرت في ذهني كلمة كاملة، كانت تبدو لي رائعة ومقنعة، والآن تراني لا أستطيع أن... لكن مع ذلك... فأنت يا فيودور ميخائيلوفيتش، لابد أنك عرفت من شكلي، أنني طالبة، فأنا أدرس السنة الثانية، وأنا من فولخوف. هناك أنهيت الثانوية، وقرأت كل مؤلفاتك، حتى «الشياطين»، وبرقت عينا الفتاة في تلك اللحظة. لديك فيها الكثير من الغموض. وأنا أقرأ «يوميات كاتب» لوجود بعض الأفكار العميقة أحياناً، والمعوجة أحياناً.

انتفض دوستويفسكي في مكانه، وأخذ نفساً عميقاً، وراح يسعل بينما أضافت:

- يبدو أن سماع ذلك مؤلم لك يا فيودور ميخائيلوفيتش، لكنني لا أستطيع الإفصاح عن ذلك بشكل آخر، ولن أحسب نفسي إنسانة، إذا سكتُّ عن ذلك. فأنت كتبت «الناس الفقراء» و«مذكرات من بيت الموتى»، و«الجريمة والعقاب»، أية أعمال رائعة هذه! والآن أنظر إليك يا دوستويفسكي وأرى منظرك العليل والمعذب وإلى جبينك الشبيه بجبين سقراط، وأفكر كم تعرف، وترى، وتتنبأ، وكم تتألم؟

- كم أتألم! قاطعها دوستويفسكي فجأة، ونهض واقفاً.

نظرت الفتاة إليه خائفة.

- اعذريني، لقد أرعبتك. - وعاد وجلس في مكانه - أرجوك تكلمي، تكلمي، فأنت تقولين أشياء طيبة.

- أنا مسافرة غداً في الساعة الحادية عشرة. نحن ست طالبات، سجلنا أسماءنا في الفصيل الطبي. لم يكن ذلك سهلاً أن نفعل ذلك. لقد ساعدنا طبيب عسكري في ذلك، نحن ذاهبات معه. سيكون الأمر صعباً، وخاصة بالنسبة لي لأنني أدرس الآداب، أما البقية فهن من كلية الطب.

وبشكل لا شعوري نظر دوستويفسكي إلى يديها النحيلتين، المصفرتين ولاحظ أصابعها الطويلة، وعروق دم زرقاء على كفيها. كانت يداها مستلقيتين بحنان على ركبتيها.

- لقد تعلمت التضميد في الأسبوع الماضي في كلية الطب في مشفى مارييسكايا. طبعاً هذا لا يكفي يا فيودور ميخائيلوفيتش، لكن حيث لا تنفع المعرفة، ينفع الحب.

- لقد قلت كلمة رائعة - الحب. لكنك ضعيفة، غير قادرة على فعل ذلك في البلقان، فأنا أعرف تلك الأجنحة في المستشفيات وأعرف الجرحى. هناك ستجدين من تكون جراحه مرعبة نازفة متقيحة. الدم والألم.. - وأغمض دوستويفسكي عينيه - هذا ليس في قدرة فتاة، هذه بطولة لامرأة عانت الآلام وتريد أن تطهّر نفسها في ذلك العمل المضني، أما أنت؟!

- أنا، ماذا؟ سألت الفتاة - ماذا يا فيودور ميخائيلوفيتش؟ لماذا تقول ذلك؟ التطهير، البطولة. هل تظن أن سونيا مارميلادوفا والمذلين والمهانين وحدهم قادرون على البطولة فقط.

- لا أقصد ذلك، أنت لم تفهميني جيداً، لم تفهميني جيداً.

- كلا يا فيودور ميخائيلوفيتش، أرجوك، سأقول لك السبب الذي دعاني للقدوم إليك. اسمح لي أن أشرح فكرتي أولاً، ثم تجيبني، حسنٌ.

- حسنٌ، أنا مستمع إليك، سأصغي إليك كما تشائين، سأمنحك الوقت الكافي كما ترغبين. وأشعل سيجارة جديدة.

- لقد أحببت أدبنا، أحببت لمسه حقيقة الحياة، ولنزاهة أفكاره - تابعت الفتاة حديثها - أرجو أن لا تحكم عليَّ من خلال مظهري، وتظن

أنني ضعيفة وجلة، هذا مظهر خارجي أما الحقيقة فأنا صارمة متعنتة، وفي داخلي روح عنيدة.

وأومأ دوستويفسكي برأسه موافقاً، وقد أعجبته عبارة «روح عنيدة». كان والدي قساً طيباً، ضعيف الشخصية، ولم يكن من تعداد أولئك الآباء - واحمرّ لون الفتاة - الذين لا يعرفون سوى الصلوات والطلبات. كلا، لقد كان إنساناً اجتماعياً يقرأ المجلات والكتب وقد لقبوه عندنا بـ «المفكر الحر». وأنا كنت ابنته الوحيدة فلم يرسلني إلى مدرسة الأبرشية (لم يكن يحب القساوسة)، بل أرسلني إلى المدرسة الثانوية. إنني أرى من تعابير وجهك يا فيودور ميخائيلوفيتش أنك لا تحبذ مناقشة الأمور الدينية. أما أنا وأبي - ولمعت عيناها - لم نكن نناقشها فقط، بل ندينها، وفي المدرسة جاءت إلينا مديرة جديدة من الأسر الألمانية البارونية، قريبة المحافظ. كرهتني وضايقتني كثيراً، أما معلم القانون الأب ميخائيل فكان يدعوني بالنبتة الطفيلية. وكان يقول، هكذا نرى نبتة طفيلية في «كرم العنب»، وهناك شيء آخر - تلعثمت الفتاة قليلاً ثم تماسكت والقلق باد عليها - ثم جاء شاب إلى فولوغدا، جاء من المنفى بعد أن فصلوه من جامعة موسكو. راح يتردد علينا، وتناقشنا وتحدثنا عن الله والدولة وعن بيلينسكي وتشيرنيشيفسكي وعن تولستوي وعنك يا فيودور ميخائيلوفيتش، وأعارني كتاب إرنست رينان «حياة المسيح» لقراءته.

لم ترض والدتي بزيارات ذلك الشاب. هكذا منعناه من زيارتنا. بعد ذلك، وبأمر من الشعبة الثالثة أرسلوه إلى مدينة توتما الصغيرة. كما كان رائعاً ذلك الشاب يا فيودور ميخائيلوفيتش. سكتت قليلاً ثم تابعت:

- وتوفي والدي في العام ما قبل الفائت، بعد أن مرض مرضاً شديداً، إذ كان الصقيع شرساً في ذلك العام.

طلب الزواج مني أرمل غني متوسط العمر، يعمل في إدارة المحافظة. رفضت طلبه. وهنا راح الجميع ينظرون إليّ نظرات مستنكرة ويقولون: «متكبرة». أنهيت الثانوية. عندئذٍ سافرت على هنا لمتابعة الدراسة. أنا لا أحزن إلا على والدتي، لقد تركتها وحيدة هناك.. وهنا تعرفت على كثير من الطيبين في بطرسبورغ، وقرأت كثيراً من الكتب الجيدة، فأنا أقضي وقت فراغي في المكتبة العمومية. أجلس هناك وأقرأ.

لم يعد دوستويفسكي يطيق صبراً فراح ينظر إليها ببرود وازدراء.

- وأنت، اعذريني على مقاطعة حديثك، فهذا شيء مهم لمتابعة حديثنا، حتى أنك لا تقدري كم ذلك ضروري لمتابعة حديثنا، وهل تضيفين الكتب الإلحادية إلى بقية الكتب الجيدة؟ وخاصة تلك الكتب التي يقولون فيها أن المادة تسيطر، تخيم على الروح. وهناك سؤال آخر. هل تعتبرين السيد المسيح، الإنسان الرب، منقذاً لهذا العالم؟ أم برأيك هو مجرد إنسان عادي مثلي ومثلك، وربما أفضل قليلاً؟ - ولوح بيده كأنه يبعد عنه هذه الأفكار المرعبة، ونهض عن الكرسي وراح يخطو في الغرفة جيئة وذهاباً - فأنت حسب كل المعطيات، إنسانة مخلصة، مقدامة، (ربما لا تعجبك هذه الكلمة) فأنت سائرة في طريق العذاب الأخلاقي، الروحي لتساعدي القريب... إذاً كيف تساعدين القريب من دون الوصايا المسيحية. لا يوجد حب أقوى من أن يضحي الإنسان بحياته من أجل الآخرين أليس كذلك؟ أجيبي. كاد دوستويفسكي يصرخ بأعلى صوته.

- إذاً أنت تنتظر مني الإجابة؟! أنت الذي يستمع إليه آلاف الناس. هذا يعني أنه ليس لديك ما تقوله. هذا يعني أنك بنفسك إنسان ضعيف؟!

قالت ذلك الفتاة وعليها علائم القلق الشاقة.

لم تعد الفتاة الجالسة أمامه مجرد فتاة وجلة في فستان مدرسي بني بياقة بيضاء، بل إنسانة معادية بدون رحمة لأفكار ومعتقدات دوستويفسكي.

لم يجب دوستويفسكي بشيء، بل راح يخطو في المكتب بعصبية.

- حسنٌ سأقول لك يا فيودور ميخائيلوفيتش. نعم، أنا لا أؤمن بالله، ولذلك لا أستطيع اعتبار المسيح ابناً له. ولا أعتبر التوراة والإنجيل كتباً ربانية، بل كتباً أخلاقية تاريخية، وبالنسبة لي، ليست الربانية في التسامح على كل شيء، ليست في الصلاة، وليست في الإيمان بحياة ما بعد القبر، ولا تظن ذلك ناتجاً عن كوني مازلت فتاة شابة والحياة ما زالت أمامي... لقد قال بيسيمسكي لصديقتي: «أنت يا سيدتي اللطيفة، لا تؤمنين بالله لأنك ما زلت صغيرة، لكن، عندما تعيشين إلى مثل عمري فستدافعين عن نفسك بمئة ركعة كل يوم».

لا يا فيودور ميخائيلوفيتش ليس بسبب ذلك... الربانية من وجهة نظرية، هي ما لدى الإنسان من مثل عليا في وعيه لواجبه أمام المجتمع - لواجبه أمام الشعب. لكن لديكم، عندما يفقد أي بطل من أبطال روايتكم إيمانه، يحسب كل شيء قد أصبح مباحاً بالنسبة له. وكأن الإيمان بفعل الخير المسيحي... لجام للإنسان. وأنا عندما أذهب لمساعدة الجرحى فأنا لا أفعل ذلك من أجل إنقاذ روحي، أو لأجد مكاناً لي في الحياة الأبدية. بل أفعل ذلك من أجل المساعدة فقط، حتى يرى الناس أن المرأة الروسية ليست عبدة، بل إنسانة حرة ...

احمرّ وجه الفتاة كلياً، ولكنها تابعت.

- آه، أخطأت من جديد، لم أقل ما يجب قوله... أنا لم آت إليك لأتباهى... إنك ترى كم أنا غبية. جئت لمناقشة ولحلّ بعض المسائل مع الكاتب الشهير، لكن ما حدث كان شيئاً آخر تماماً.

لا أحد مثلك يا فيودور ميخائيلوفيتش يشفق على الذليل، المهان بهذا الشكل، كما تفعل، لا أحد مثلك يستطيع تجسيد معاناته الروحية، وأنت تحترم النساء. ولقد ذقت الألم في منفى الأعمال الشاقة، هذا يشكل جانباً، أما الجانب الآخر ففيك يعيش اثنان، أحدهما بارد والآخر مسيحي. ليس مسيحياً مثل ميشكين أو مثل ذلك العجوز في «المراهق» بل مسيحياً شريراً لا يساوم أبداً، مثل نيكون. أنت شبيه بوبيدونوستسيف هذا هو أنت، هذا هو أنت. وانهمرت الدموع من عينيها. إنك تأخذ بتلابيب الناس وتجرها إلى مملكتك السماوية... و... وهنا تلعثمت في كلامها.

- اخرسي، وأمسكها دوستويفسكي من ذراعها، وشدها بقوة، وارتعشت أنفاسه حتى بدا كأنه يشخر شخيراً. - أنت طفلة متغطرسة وغبية. أنت، أنت، كيف تستطيعين الحكم عليَّ؟ كيف تستطيعين؟

- قال ذلك بمرارة وازدراء.

- فيودور ميخائيلوفيتش - قالت الفتاة خائفة - أنا لم أقصد ذلك أبداً. لقد قلت ذلك وأنا منفعلة، لقد أتيت إليك بقلب نظيف، سامحني.

وفعل دوستويفسكي المستحيل حتى تغلب على غضبه.

- مع السلامة - قال دوستويفسكي بصوت حاد. فردت الفتاة:

- سامحني.. ونهضت وانحنت بإحراج أمام دوستويفسكي، وخرجت من المكتب.



كانت صالة الدرجة الثالثة الوسخة في محطة قطارات نيكولايفسكايا معتمة جداً. وكانت تغص بالمعاطف الرمادية العسكرية والحقائب الظهرية وأباريق الشاي المعدنية وضجيج الأحاديث الذي لا ينقطع، وكانت كافة المقاعد مليئة، حتى أن بعضهم قد جلس على الصناديق هنا وهناك. تجمعت قرب النافذة الواقعة بجانب المدخل مجموعة المسافرين، المؤلفة من الأخوات الطبيبات الممرضات والطلاب المساعدين للأطباء. وكانت الأخوات يرتدين مناديل سوداء، ومعاطف سوداء أيضاً وعلى أطرافهن، شرائط بيضاء، رسمت عليها شارة الصليب الأحمر بشكل واضح.

أما الطلاب فكانوا في معاطف عسكرية وبكتافيات تشير إلى أنهم من المتطوعين.

وسأل طالب طويل القامة ذو وجه تعب مصفر الفتاة الصغيرة الرقيقة كاتيا:

- إذاً فلقد زرت دوستويفسكي؟ ماذا قال لك ذلك الرسول الجديد؟

- نعم. كنت عنده. - قالت الفتاة بحماس ثم أضافت - وأنا لا أفهم يا ميخايلوف، لماذا تكلمني بهذه اللهجة الساخرة؟

- كيف إذاً تريدين منا يا كاتيا المحترمة أن نتكلم عن دوستويفسكي؟ عن ذلك الكاتب، الذي داس بقدميه على كل مثله العليا الأولية وأصبح داعية للكنيسة الأرثوذكسية!.

فهزت كاتيا كتفيها وظهرت على وجهها علائم الغموض والحيرة. ثم قالت: - أنت يا ميخايلوف، لا تقول ذلك بلباقة، تلك الجمل التي تعلمتها، أنت لا تريد الغوص في أعمال روح الكاتب. هذا ليس عدلاً وسامحني لقولي: هذا ليس نزاهة.

عندئذٍ علّق طالب مربوع القامة، أشقر الشعر، والمرح باد على عينيه الزرقاوين: - لقد وقعت كاتيا من جديد في المضاربات.

لكن كاتيا لم تنظر إليه. وقالت:

- أعتقد يا سادة، أن دوستويفسكي فنان موهوب وعميق في سبر النفس البشرية، لكنه تائه كما في متاهات مصر.

وصرخت الفتاة السمراء، التي ظلت طوال الوقت صامتة:

- آه يا إلهي، كم سئمت من هذا الحديث. نحن الآن مسافرون إلى البلقان يا زملائي الأعزاء وأمامنا أعمال مهمة وضرورية، ونحن الآن لا نفعل سوى أن نعكر دمنا بهذه المناقشات.

واتجه ميخايلوف إليها بحديثه قائلاً:

- لا توجد لديك يا تانيا مثلاً اجتماعية عليا. فلا فرق لديك بين دوستويفسكي وتشيرنيشيفسكي.... عندئذٍ انفجرت تانيا غضباً:

- حسنٌ، أنا قانعة بذلك. أفضل لي أن أعمل عملاً من أن أثرثر في (الفاضي والمليان). أما ما يخص مثلي العليا فأنت لست في موقع يمنحك الحق أن تحكم عليها. صحيح ما قالته كاتيا، فأنت تناقش المسائل والقضايا بآراء جاهزة.

- اعذريني - وانحنى ميخايلوف - اعذريني يا سيدتي الطيبة، لأنني أهنتك، لقد ذهب من ذهني أن «النقاش مع امرأة، مثل نضح الماء بالغربال».

ومرّ بالقرب منهم جندارم (مراقب المحطة)، تبدو عليه الرصانة وهو يرن بمهمازيه وسيفه. توقف في منتصف الصالة، ومسد شاربيه الشائبين وقال بصوت جهوري خشن:

- أرجو أن تستعدوا للسفر. ستنطلق القافلة العسكرية بعد نصف ساعة من رصيف المحطة الثاني. ثم توجه نحو المجموعة الطبية وقال مختتماً حديثه: أما أنتم أيها السادة المتطوعون وأيتها الأخوات الطيبات، تستطيعون الذهاب إلى صالة الدرجة الثانية، فهناك الوضع أفضل بكثير من هنا. لماذا عليكم أن تتزاحموا مع الجنود هنا. فرد عليه ميخايلوف بصوت عال ليسمعه الجميع:

- اسمح لي أن أعلمك يا سيدي الجندارم، أننا بين هؤلاء الجنود كما عبرت، نشعر بارتياح أكثر مما لو كنا في وسط الجمهور النبيل.

وحدق الجندارم بعينيه وقال: لماذا تقول ذلك أيها السيد المتطوع؟ فأنا قدمت لك اقتراحاً لطيفاً أما أنت فتتبح...

وألقى نظرة عدم ارتياح إلى الشباب، وبنفس تلك الخطوة الرصينة عاد من حيث أتى.

فجأة، دوى صفير القطار، فراح الجنود والنساء المودعات يتزاحمون على المداخل والمخارج إلى رصيف المحطة.

- والآن حان الوقت يا زملائي - قال الطالب المرح.

- انتظر قليلاً - قال آخر - سنلحق... سيخرج الناس ويخفّ الازدحام.

☆☆☆

في هذه اللحظة ظهر هيكل إنسان غريب قرب باب المحطة في معطف أسود طويل، وقبعة سوداء مشدودة بقوة على جبينه، حتى بالكاد تستطيع تمييز عينيه اللامعتين ببريق حي.

وقف قرب الباب ينظر إلى الناس بانفعال، كأنه يبحث عن أحد ما. وفجأة هرعت كاتيا إليه من مكانها:

- فيودور ميخائيلوفيتش، صاحت كاتيا بصوت رنان، حتى أنه طغى على ضجيج أصوات الصالة. فيودور ميخائيلوفيتش، هذا ما توقعته، أنك لابد ستأتي - وضغط دوستويفسكي بخفة على يدها - وقال:

- توقعتِ، توقعتِ وانتظرتِ.

- طبعاً يا فيودور ميخائيلوفيتش، أنا مغمورة بالسعادة لرؤيتك... لماذا نقف هنا؟ لنذهب، لنذهب، وأمسكت كاتيا دوستويفسكي من ذراعه وقادته إلى الطلاب وقالت: يا سادة لقد جاء فيودور ميخائيلوفيتش بنفسه إلى هنا. وأنت يا ميخايلوف كنت تقول... آه منك يا رجل الكتب. مع أنك طيب القلب وذكي، لكنك تعطي نفسك مسحة زائدة من سعة الاطلاع. وهذا سيئ جداً أن تفعل ذلك - وصفقت كاتيا بيديها - يا إلهي أي هراء أتحدث به الآن! لقد فقدت السيطرة على نفسي من شدة السعادة.

كانت كاتيا تبدو جميلة في انبعاثها، حتى أن الجميع أحبوها في هذه اللحظة لاشعورياً.

- آه يا كاتيا، كاتينكا، يا صاحبة الروح العظيمة - هرعت تانيا إليها واحتضنتها وراحت تقبّل خديها الورديين.

ابتسم الجميع، وكان حملاً ثقيلاً قد أزيل عن أكتافهم، وصافح دوستويفسكي الشباب يداً بيد بكل احترام.

- أما أنا فأقول - تبدل وجه ميخايلوف كلياً وغابت عنه معالم الاستهزاء وارتسمت عليه ابتسامة وضاءة - أنت محقة يا كاتيا بالنسبة لسعة الاطلاع. وأنا أقدر عالياً قدوم فيودور ميخائيلوفيتش، كما أقدّر

عالياً «مذكرات من بيت الموتى» و«المهانون المذلون» و«الجريمة والعقاب» و«المراهق» أنا لا أقرؤها فقط، بل أثمنها وأقدرها. ونحن ممثلو الشباب الروسي نفتخر بأدبنا، ونريد أن نرى فيه انعكاساً لمثلنا العليا ولآمالنا.

أصبحت الصالة شبه فارغة، وتناهت إلى آذانهم أصداء آلات الأوركسترا العسكرية من الأبواب المفتوحة، وهرع نحو الطلبة طبيب عسكري شاب، وقال:

- ماذا تنتظرون يا زملاء؟ سنطلق القطار بعد خمس دقائق. ثم أمرهم رئيس الأطباء بالذهاب فوراً إلى العربات... ولوّح بيده وركض إلى رصيف المحطة، فقال ميخايلوف لدوستويفسكي مودّعاً:

- نتمنى لك الصحة والسعادة يا فيودور ميخائيلوفيتش، وصافحه بحرارة، ثم صافحه بقية الطلاب.

- نعم، نعم، كان دوستويفسكي مبتسماً، يرد على كلمات الطلاب، شكراً لكم يا سادة لن أنسى كلماتكم... كنت وما زلت أحترم الشبيبة الروسية، أما ما يتعلق «بالشياطين»... فتلك قصة طويلة، سنتكلم عن ذلك عندما تعودون... سأجيب على أسئلتكم برواية جديدة

- وحدق في وجه كاتيا، ثم أضاف: برواية تختلف كلياً.

وسُمع صوت الضربة الثانية للجرس النحاسي، وجلجل دوي صفير القطار، فحمل الطلاب حقائبهم.

- وداعاً يا فيودور ميخائيلوفيتش، وداعاً. وأمسك دوستويفسكي بيد كاتيا ومن جديد رقّ قلبه على تلك اليد النحيلة الرقيقة بعروق دمها الزرقاء. يد طفلة تماماً وأخذ تلك اليد وقبّلها بحيطة وحذر شديد، وكأنه يقبل إيقونة رائعة الإبداع.

وفي المساء، وعلى ضوء الشموع، كتب دوستويفسكي في مكتبه مسودة المخطوطة.

«إن ترميم وإصلاح وإنقاذ المجتمع الروسي بشكل جذري، يقع على عاتق المرأة الروسية. لقد برهنت إلى أي حدّ تستطيع أن تسمو وتفعل. فعلى الأرض الروسية تعيش الكثيرات من النساء بقلوبهن العظيمة، القادرة على العمل الاجتماعي وعلى التضحية بالروح».



# درب نيكراسوف الأخير

اقترب عام 1877 من نهايته.. واستيقظ دوستويفسكي في الثامن والعشرين من شهر كانون الأول وهو يحس بقلق غامض. مبهم. لقد أحس بذلك القلق ليلة أمس عندما استلقى لينام، لكنه لم يستطع، فأخذ يقرأ «البؤساء» لهيجو. لقد ظل طوال الليل يستيقظ بين لحظة وأخرى. واليوم استيقظ باكراً، ترى ما السبب؟

ما زال الجو معتماً غائماً.

أشعل دوستويفسكي الشمعة، وارتدى ثيابه، وسمع أصداء موسيقا استعراضية تتاهت إلى أذنيه عندما راح يشرب الشاي. وهرع إليه أحد معارفه وأخبره بوفاة نيكراسوف.

لهذا السبب كان دوستويفسكي قلقاً طوال يوم أمس واليوم. إذ كان يعرف أن نيكولاي ألكسيفيتش أصبح بدون أمل في متابعة الحياة. لقد زاره بنفسه.. ومع ذلك كان موت نيكراسوف مفاجئاً له.

الريح تعصف في شوارع المدينة. والصقيع..

وعلى عربة أجرة كان حوذي في معطف عسكري موقع يمسح الزلاقات وراء فرسه الرمادية.

- لا تغضب أيها السيد - قال الحوذي مخاطباً دوستويفسكي - لم أرَ راكباً واحداً منذ الصباح الباكر. ولهذا بردنا جداً.

- حسنٌ أيها الجد، أنا لست ذاهباً إلى حفلة زفاف. لقد توفي أحد أصدقائي الطيبين.

- هل مات صديقك؟ لقد خلص من الحياة، فله ملكوت السموات.

- صدقت أيها الجد بقولك: «خلص» فحياتنا فانية.

احتشد الناس قرب منزل نيكراسوف.

اصطفت العربات بكافة أنواعها وأشكالها.

ومرّت قرب دوستويفسكي فتاة في معطف فراء، تمسك بمنديل قرب عينيها.

وكانت الشموع مشتعلة قرب رأس المرحوم في القاعة التي تمدد فيها، ومن خلفه الأنالوين [1]. قرأ الشماس مرتلاً جزء البسملة من الكتاب المقدس. وكانت آثار آلام الموت التي عانى منها المسجى ما تزال عالقة على وجهه.

اقترب دوستويفسكي وقبّل يد نيكراسوف الباردة، وانحنى تكريماً له، ثم ابتعد جانباً ليفسح الطريق للآخرين. وأراد أن يعزي زوجة المرحوم السيدة زينايدا نيكولايفنا، لكنه لم يقدم على ذلك عندما شاهد وجهها (الطافح بالحزن). بأي شيء يواسيها؟

وقرأ المبسمل بشجن.

- هذا الإنسان، لن يخطئ بعد الآن...

وقف دوستويفسكي ورسم إشارة الصليب على صدره ثم خرج بهدوء...

اجتمع حشد كبير من الناس أمام بيت نيكراسوف وحشد من الشبيبة، إذ كنت ترى في كل مكان السدارات الطلابية، سدارات طلاب الجامعة ومعاطف طلاب الثانوية.

لم يستطع دوستويفسكي العمل في هذه الليلة أيضاً.

- هذا الإنسان لن يخطئ بعد الآن.

---

[1] الأنالوين: الكرسي الذي يوضع عليه الكتاب المقدس أثناء القراءة. م.

خافت آنّا غريغوريفنا أن تترك زوجها وحده في المكتب، فدخلت بهدوء وجلست على طرف الديوان. لقد كانت تعرف جيداً كم كان دوستويفسكي يقدّر الشاعر المرحوم - كانت خائفة أن يقع في نوبة الصرع من حزنه الحاد على موت نيكراسوف. ولم يقل لها دوستويفسكي أية كلمة عندما، دخلت المكتب، سوى أنه أومأ برأسه مرحباً بقدومها.

☆☆☆

على الطاولة كانت خطة عمل لعشر سنوات، مكتوبة بتاريخ 24 كانون الأول. كانت أفكاره تخفق بشدة في دماغه: «لقد تعذب نيكولاي ألكسيفيتش وانتهى... أما أنا فلدي خطة لعشر سنوات. طبعاً، حبذا لو عشت أكثر... لكن هل يمكن توقع، متى يحدث ذلك؟ متى تأتي اللحظة المحتمة»؟

يمكن أن يكون الموت جاثماً هنا، خلف هذه الأريكة... لا، لم يستطع فيودور ميخائيلوفيتش العمل في هذه الليلة.

ويقترب دوستويفسكي من أحد رفوف الكتب، ويتناول ثلاثة كتب للشاعر نيكراسوف، يحملها بكل حنان. يفتح الجزء الأول، ويبدأ بقراءة أشعار نيكراسوف بصوت مسموع.

تحبس آنّا غريغوريفنا أنفاسها وتستمع.

كان يقرأ أشعار نيكراسوف بصوت خاص، يمتص تلك السطور، وفي نفس الوقت يتذكر أوقات لقاءاته مع المرحوم، بالدقائق.

يعود الزمن إلى الخلف... كانت أحلاماً مجيدة رائعة. وكانت نزوات وشكوكاً تعود لسنوات الصبا.

لم يكن دوستويفسكي عاطفياً في طبعه، لكنه الآن يعرف أن المسجى في تابوته في منزل كرايفسكي هو نيكراسوف الصديق. «التراب موجود فيه ترتاح».

تذكر أيام عمله في رواية «الناس الفقراء»، وتصور كيف هرع إليه الشاب الشاعر منفعلاً مع غريغوريفتش، بعد أن قرأ مخطوطته «الناس الفقراء» وبأي صدق، بأي حب حضنه - نعم لقد حضن نيكراسوف دوستويفسكي الحائر آنذاك، لا يستطيع أن ينسى ذلك الموقف. عندما قال نيكراسوف:

- أنت لست موهوباً فقط، بل أرفع بكثير من ذلك.

وتتوهج أمام عيني دوستويفسكي صورة وجه آخر - وجه نحيل - دقيق الملامح، بعينيه البراقتين، وجه ضمير الأدب الروسي، وجه فيساريون غريغوريفيتش بيلينسكي.

هنا لحظات في الحياة، لا يستطيع أي شيء محو ذكراها، وتصادف بعض الناس، الذين يشرحون القلب، ويملؤونه بالسعادة لمجرد ذكر اسمهم. عندئذٍ يبدو الإنسان سعيداً مهما كان تعيساً، لقد كان نيكراسوف وبيلينسكي من هؤلاء الناس.

طوق دوستويفسكي ركبتيه بيده وشد عليها. وعيناه جافتان، كان البكاء في قلبه، هذا أشد ألماً، إذا كان البكاء في القلب.

وينهض دوستويفسكي ويخطو داخل الغرفة يميناً ويساراً، ومن جديد يبدأ بقراءة أشعار نيكراسوف، ومن جديد تستحوذ عليه أفكاره.

«طبعاً نيكراسوف ليس بوشكين، فهو أقل موسيقيةً في أشعاره من أشعار بوشكين أو ليرمونتوف، لكنه، غالباً ما يضاهيهما في

المقاييس الشعرية. أحياناً يبدو، جافاً بلاغياً. إذاً، ترى أين يكمن سر قوته؟ ما الذي يجبر الناس أن يروا فيه شاعراً عظيماً؟ شاعر الشبيبة المحبوب؟. أن الشباب أكثر صدقاً وأكثر استيعاباً من غيرهم دائماً.

أين السر إذاً؟

- أتعلمين يا آنيا - يتوجه دوستويفسكي بالحديث لزوجته - لنقل أنه كان هناك شاعر اسمه توتشيف - شاعر عميق موهوب - شاعر فيلسوف، لكننا مع ذلك لا نستطيع مقارنته بشكل من الأشكال مع نيكراسوف، من حيث أهمية تأثيره على جمهور القراء.

إن قوة نيكراسوف - كان صوت دوستويفسكي المبحوح واضحاً جلياً في سكون المكتب - تكمن في شعوره بحب الشعب. كان يبحث عن الإنقاذ في الشعب، في الفلاح الروسي، في الموجيك الروسي.

وعندما كان نيكراسوف، يقع في ساعات الكرب، عندما تحاصر أنفاسه دناءة المحيط حوله، كان يشعر بالاختناق من الآفات الضيقة الأفق، ومن مكائد المراقبين المجانين. كان يبحث عن النجاة في الشعب، ويجدها فيه. كان يجد النجاة في طموحات الشعب في شجاعته، في عقله، في إيمانه - ويفكر دوستويفسكي قليلاً ثم يتابع: نعم إننا نسامحه على كل شيء، لأنه ظل طوال حياته يعمل في خدمة الشعب، لكن هل يوجد شيء نسامحه عليه فعلاً. كيف تظنين يا آنيا؟

الوقت يمضي... وصوت صفحات الكتاب تنفتح وتنقلب واحدة إثر أخرى. كان دوستويفسكي يقرأ أشعار نيكراسوف.



كان الصقيع شديداً والسماء متلبدة بالغيوم، والبيوت داكنة في الثلاثين من شهر كانون الأول. وموكب الجنازة يشير ببطء على شارع ليتيئني بروسبكت.

واصطف الطلاب والطالبات حول أطراف القناطر، وتسلق البعض عليها ، والأرصفة مزدحمة بالفضوليين، وأولاد على أعمدة المصابيح وآخرون على السطوح.

وعربة الحداد تسير ببطء شديد، والأصدقاء يحملون تابوت المرحوم. مشاعل، أكاليل. كانت الأكاليل كثيرة يتوسطها إكليل بشريطة حمراء كتب عليها بأحرف ذهبية:

«إلى ن. آ. نيكراسوف من الاشتراكيين»..

كان نيكراسوف يسير على دربه الأخير كبطل منتصر.

والكورس يرتل بحزن عميق «الذكرى الأبدية»، وتتصاعد الكلمات الحزينة إلى قبة السماء المثقلة بالغيوم.

وكانت آنّا قلقة على زوجها، إذ كان يسير حاسر الرأس خلف النعش.

- ستمرض يا فيديا ، لنذهب إلى البيت، وسنلحق قداس المرحوم بعد ساعتين إلى نوفوديفجي.

- انتظري يا آنيا. سنصل حتى الإيطالية. وتسمع خلف دوستويفسكي أصوات متذمرة.

- وهنا لا نستطيع أن نسير دون حراس النظام؟!

- لو أنهم، لا ينجسون دربه الأخير فقط.

كان كبار رجال الجندرما ، يحاصرون صفوف الطلاب من كلا الجهتين بخيولهم، بخوذهم وسيوفهم العريضة البراقة المنذرة في الضباب الثلجي.

امتلأت المقبرة بالناس، الذين أصغوا إلى كل كلمة قيلت في صمت وإجلال.

«لمن هذا الصوت الرنان المهتاج»؟ - سأل دوستويفسكي بنفسه ونظر إلى الخطيب. كان الخطيب طالباً ذا وجه ذكي، جميل وملهم، كما وصفه دوستويفسكي. وتكلم الخطيب عن نيكراسوف كديمقراطي عظيم وصديق بيلينسكي ودوبرولوبوف والناشر «للمعاصر» ولـ «المذكرات الوطنية» ومؤلف «الطرق الحديدية»، عن نيكراسوف الذي جسَّد في أشعاره، ليس فقط آلام الشعب بل حنقه وشجاعته وبأسه أيضاً. وعم ضجيج مؤيد لكلام الخطيب، عندما أنهى الطالب كلمته [1].

وبعد ذلك تكلم آخرون، لكن لم يكن دوستويفسكي يستمع إليهم. واقترب من القبر الذي ما زال مفتوحاً ، والمحاط بالشباب والشابات. كم كانت عيونهم عظيمة! كم من الحب في عيونهم! التي تنظر إلى تابوت الشاعر.

وكان دوستويفسكي يزفر أنفاسه بصعوبة وهو يفكر. ماذا سيقول عن نيكراسوف؟ ماذا يقول هو الأديب الروسي المعروف؟ ماذا يقول لهؤلاء الشباب. مستقبل روسيا؟ ماذا يقول؟ لقد لاحظوا وجوده، وكانوا ينتظرون كلمته.

---

[1] الطالب هو: غ. ف. بليخانوف.

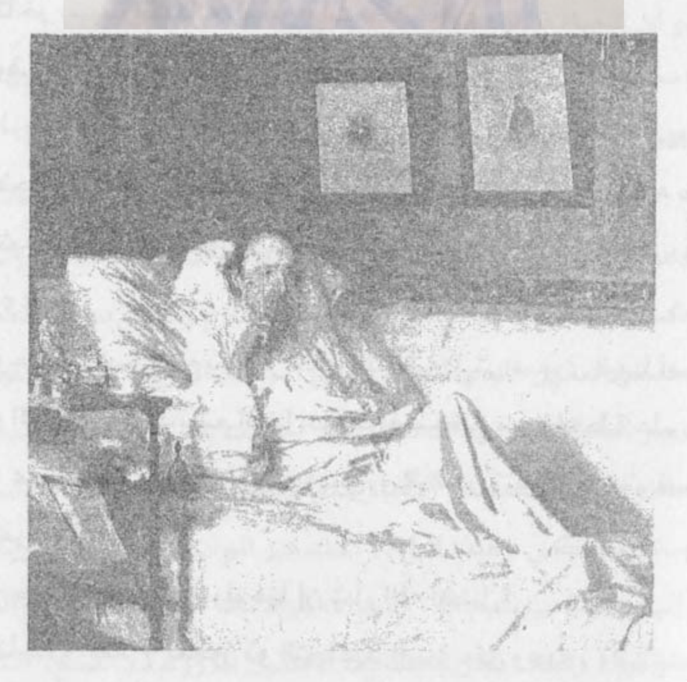
بدأ دوستويفسكي كلمته بصوته الضعيف المخنوق.

وتحدث في كلمته عن نيكراسوف، كشاعر شعبي، كشاعر حزين. وقال إنه سار على الدرب، الذي سار عليه بوشكين، وقال إننا نضعه بعد بوشكين وليرمونتوف مباشرة لأهميته وعند هذه الكلمات عم الصراخ مخترقاً السكينة.

- أسمى، أعلى..

وعاد دوستويفسكي إلى بيته على الزلاقات، لم يكن راضياً عن نفسه «كان عليَّ أن لا أقول ذلك، لا يجوز مناقشة من أعلى وأرفع قرب قبره المفتوح» [1].

وشعر بألم في صدغيه، وفي روحه حزن وغموض.



[1] قام دوستويفسكي بتقديم تحليل ونقد لأعمال نيكراسوف في «يوميات كاتب».

# داروفوي

كان إيفان غريغوريفتش سنيتكين، شقيق آنّا، يملك مزرعة في محافظة كورسك تدعى «مالي يريكول» وفيها منزل صيفي، تحيط به الأشجار، إضافة لمزرعة حيوانات حلوبة.

وكان سنيتكين قد أنهى الدراسة في أكاديمية الزراعة، وتزوج من فتاة غنية، والآن يخصص كامل وقته لإدارة شؤون المزرعة بطرق علمية معاصرة، ولهذا ازدهرت مزرعته كثيراً.

وكان دوستويفسكي قد استأجر منزلاً في المزرعة لقضاء فترة الصيف، وكانت آنّا والأولاد هناك. وكان عليه أن يصل إليهم قبل فترة، لكنه تأخر بسبب انشغاله في «يوميات كاتب».

وقرر دوستويفسكي، وهو مسافر إلى زوجته أن يخطف نفسه ليومين لزيارة قرية الآباء في داروفوي، حيث تعيش فيها شقيقته فيرا. لقد أحس فجأة أن فكرة «العودة إلى سنوات الطفولة» قد تلبسته كلياً. ولذلك توجب عليه أن ينتقل إلى العربة القذرة الرطبة القديمة المتوجهة إلى «داروفوي».

وجلس فيها وراح ينتظر تلك اللحظة التي سيرى فيها أماكن طفولته الحبيبة هناك، ثم انتقل دوستويفسكي من المحطة على عربة مقرقعة عبر الطريق الوعرة إلى داروفوي. وفي الطريق سال دوستويفسكي سائق العربة!

- كيف صارت الحياة هنا إن شاء الله أفضل؟

فأجاب الفلاح العجوز ذو التجاعيد البنية على وجهه، والذي يرتدي قميصاً أزرق مبرقشاً، وهو يمط الكلمات بشفتيه:

- الحالة خانقة، لكن مازلنا نتنفس. وتفحص بطرف عينيه المسافر معه. ولاحظ دوستويفسكي على وجه الفلاح علائم الحيطة والحذر والفضول: «من تكون يا ترى، ألست من الحكومة».

- لا تخف أيها الجد فأنا لم آتِ لقضية حكومية - قال دوستويفسكي ليريح الفلاح، فأنا أسأل من أجل نفسي. فهنا تعيش شقيقتي الملاكة فيرا ميخائيلوفنا إيفانوفا.

- آ... ويهز الفلاح برأسه - إذاً أنت شقيقها السيد فيودور ميخائيلوفيتش.

- نعم بنفسه - انتعش دوستويفسكي - لقد عرفتني أيها الأخ.

- لقد شخت يا بني - ولملم الفلاح نفسه - إلى أي حد قد كبرت! يبدو أن الحياة قد دعكت روحك كثيراً؟!

- نعم أيها الأخ، الحياة لم تبق في جسدي مكاناً حياً إلا ودعكته - وافق دوستويفسكي على قول الفلاح.

- لقد عرفتك منذ طفولتك - قال السائق الفلاح - كنت أذهب أحياناً إلى تشيريموشنو بين فترة وأخرى. وأنا أذكر ميخائيل إندرييفيتش - كان سيداً قاسياً. نعم. - صمت الفلاح وتطلع دوستويفسكي إلى منخفض السهل المحيط بهم، وإلى السماء القريبة المعلقة فوقهم، وإلى أشجار البتولا التي بدأت تذبل، إذ أحست بقدوم الخريف مبكراً هذا العام، قريباً ستصفر الأوراق ثم تتساقط. كم كان ذلك محبباً لدوستويفسكي - هذا البلد، ذلك هو الوادي، وهناك القرية والبيوت. يا إلهي، أية بيوت هذه، سوداء، نوافذها معوجة مائلة، والقش على سطوحها، وخلف القرية كانت الحقول المزروعة بالقمح، الذي لم ينمُ جيداً هذا العام.

ويتنفس دوستويفسكي الصعداء، ويتذكر إحدى لوحات الطفولة لاشعورياً.

كيف ركض إلى أحد البيوت الفلاحية، وكيف كان قلبه ينبض هلعاً بعدما تراءى له ذئب في طرف حرش. ركض إلى الفلاح العجوز ماريه، الذي هدأ أعصابه، وكيف لا يهدئ ابن سيده؟ لن ينسى دوستويفسكي أبداً ذلك الحنان الفلاحي، وتلك الطيبة الفلاحية. لقد أصبح ماريه بالنسبة لدوستويفسكي نموذجاً لا ينطمس ذكراه للشعب الروسي. نعم لا ينطمس، وتدمع عينا دوستويفسكي، يلتفت جانباً ويشد الفلاح حبال الأعنة وحدث دوستويفسكي:

- إن الله لا يعطي محاصيل كثيرة - ويشير بعصا سوطه إلى الحقول - انظر بنفسك... لقد أهلكنا المطر... سنبقى من دون خبز، والآن هذه الحرب مع الأتراك... فماذا أقول؟ إن حياة الموجيك صعبة للغاية.

هي هكذا دائماً، كم من المرات سمع دوستويفسكي هذه العبارة «سنبقى من دون خبز». سمعها في أحاديث والده ووالدته، في رسائل شقيقته، في أحاديث ومناقشات ملاك الأراضي - إنه دائماً يسمع تلك الشكاوى المرة بخصوص المطر، أو بخصوص الجفاف.

ويتذكر دوستويفسكي تلك المزارع الألمانية المهندسة بدقة متناهية، والتي تشبه بعضها، بباحاتها النظيفة وبيوتها القرميدية، التي شاهدها أثناء تجواله في ألمانيا.

الألماني ذكي، فلديه كافة آليات السقاية والري، وكافة أنواع الأسمدة. إن روسيا تحتاج لكثير من العمل ولزيادة إنتاجية محاصيل الأرض لسنوات طويلة حتى تصل مستوى ألمانيا في الزراعة.

ومع ذلك كان دوستويفسكي يؤمن بأن هذا الفلاح الروسي، ووطنه الكبير هذا، مقدر له أن يقول كلمته العظيمة للعالم الأوروبي بأكمله.

وأضاءت الشمس التي أطلت من بين الغيوم، السهل والوادي والقرية...

فرحت الشقيقة كثيراً بوصول فيودور ميخائيلوفيتش، لكنها سرعان ما بدأت تشكو، بعد أن رحبت به. وراحت تقول وهما يشربان الشاي: العمل غير منتج، والمحاصيل سيئة والديون، والمرض... ثم سألته عن آنّا غريغوريفنا وعن أعماله الأدبية.

- أنت مشهور الآن يا فيديا، ولا ترغب حتى بالنظر إلينا نحن الفقراء المنحطين، فأنت جنب إلى جنب مع الوزراء والأمراء. شكراً لآنّا غريغوريفنا الحبيبة، التي أرسلت شقيقنا ليرى عش الطفولة، لكنني لا أعرف ماذا أقدم للضيف الحبيب؟ لابد أن آنّا قد عودتك على الموائد العامرة، أما لدينا فلا يوجد سوى مطبخ ريفي بسيط، فأرجو أن لا تؤاخذني.

وأطلت الشمس بأشعتها الكسيحة من خلال النافذة، وتراءى لدوستويفسكي أن غطاء المائدة المزخرف، ذا الحاشية الحمراء معروف لديه منذ الطفولة - آه لو يستطيع أن يعود على تلك الأيام، لعدد من الساعات فقط.

لماذا تقول الشقيقة هذه الكلمات المملة؟ من أجل أي شيء تقولها؟ هل يعقل أن هذه المرأة السمينة الكبيرة السن، هي نفسها الشقيقة فيروتشكا؟!

وتابع فيرا حديثها عن ضرورة إصلاح البيت، أما هو فكان يبتسم لذكرياته.

خلف النافذة - كان السهل المنخفض، والحقول الشحيحة، والقرية الفقيرة - قرية داروفوي - الأم.

# يوميات كاتب

كان دوستويفسكي سعيداً لنجاح «يوميات كاتب»، إذ كان الجمهور يترقب كلمته، حتى غدت «اليوميات» حدثاً اجتماعياً. وتوقف دوستويفسكي عن كتابة «اليوميات» أثناء عمله في «الإخوة كارامازوف»، إذ كان من الصعب متابعتها لضيق الوقت ولصحته المتدهورة، إضافة لرده على الرسائل التي ترد إليه كالطوفان، ومن المخجل أن لا يرد عليها. كيف يفعل ذلك، ويرى أن من يكتب إليه يفتح له صدره، كيف يستطيع أن لا يرد عليه؟ فكان يكتب ويجيب.

أحياناً كانت تتوارد إليه رسائل تطعن به، لكنها قليلة. كان يكتب إليه أناس بعناوين وأسماء، كانوا يكتبون له، أنه هو الكاتب المحترم والمحبوب من قبل القراء، يقوم بالدعاية لأفكار متخلفة، مضرّة، وهو يغمض عينيه عن دناءة السلطة المستبدة، وعن جشع السلطات الدينية، ولا يرى سخافة تلك المثل العليا المسيحية، أنه لا يرى ذلك الشرخ الكبير في المجتمع الفلاحي، ولا يرى أن حلمه بالشعب - المؤمن بالله - مجرد حلم صبياني لإرضاء الضمير: لينظر جيداً إلى القرى، فهناك الإقطاع، وهناك الفقر، وهناك يموت الموجيك، ويتهمون النهليستين [1]، ويرمون السبب على ظهورهم.

كانت مثل هذه الرسائل تقلق دوستويفسكي ولا تدعه ينام، وأحياناً توصله حتى الوقوع في النوبة المعتادة.

وكانت أيضاً معايشات مسرة مع «اليوميات»...

---

[1] النهليستية: «العدمية» تعني إنكار كل القواعد والمبادئ والتقاليد والقوانين والتراث الثقافي للعصور السابقة. م.

كانت المحكمة تعالج قضية الفلاحة الشابة كورنيلوفا، التي لم تبلغ سن الرشد بعد، التي اقترفت جريمة برميها طفلة زوجها، الرجل الرمل الرصين، المؤمن الشغيل، من الطابق الثالث، ومن حس الحظ أن الطفلة بقيت على قيد الحياة. وذهبت الشابة بنفسها إلى الشرطة واعترفت بذلك. وأصدرت المحكمة حكمها عليها. لم يكن دوستويفسكي متفقاً ورأى المحكمة. واستطاع اللقاء مع تلك المرأة في السجن، ودخل في أعماق المسألة التي كان يحس بها في قلبه، وأظهر دوستويفسكي أن كورنيلوفا لم يكن لديها النية المتعمدة لاقتراف الجريمة، إذ لم تسئ للطفلة بأي شيء من قبل، وهي لا تعرف بالضبط كيف حدث ذلك: «كانت قد تخاصمت مع زوجها خصاماً شديداً في ذلك اليوم. ولم تعر المحكمة انتباهها، إن كورنيلوفا كانت حاملاً قبل المحكمة. ولم تجر المحكمة الكشوف الطبية. أما الزوج فتحدث أمام المحكمة بصدق وطيبة، وصادق على حديث زوجته، وهكذا شكلت المحكمة لجنة طبية بإلحاح من دوستويفسكي للقيام بالكشف الطبي، شارك فيها عالم النفس الشهير ديركوف، وأقرت اللجنة أن ما جرى كان تحت تأثير «انفعالات الحمل»، وكانت النتيجة أن أعادت المحكمة النظر في حكمها وبرأت السجينة. ثم جاء الزوج والزوجة إلى دوستويفسكي وشكراه على ذلك.

كان دوستويفسكي يشاهد بنفسه، يكف يمكن الحصول على نتائج إيجابية، بل عجيبة، إذا تعاملوا مع الأحداث بإنسانية؟ نعم بإنسانية. كل ذلك تعرف عليه من خلال زياراته المتكررة للإصلاحيات، حيث يربون الأحداث المجرمين.. كان يقوم بتلك الزيارات مع المحامي الشهير

والإنساني الكبير أناتولي فيودورفيتش كوني. ولا نستطيع تذكر كل ما نشره من أحاديث مع القراء، ولقد نشر أيضاً قصة «الوديعة» و«حلم إنسان مضحك»، وعن الموجيك ماريه (عن طفولته في داروفوي)، وكتب عن الشاعر المرحوم نيكراسوف، وعن اللقاء الذي لا ينسى مع فيساريون غريغوريفتش بيلينسكي...

إن دوستويفسكي سينتهي من كتابة «الإخوة كارامازوف» وسيعود بنشاط جديد إلى «اليوميات»، ربما كان لا يفعل ما يجب فعله. لكن كان يؤمن أن ما يفعله من أجل الإنسان، من أجل كرامته. ويقول كلمته من أجل روسيا... إنه مؤمن بذلك، مؤمن.

إذا لم يكن مؤمناً بذلك فلماذا «اليوميات»، ومن أجل أي شيء؟.



الناقد بيلينسكي

# يجب أن أعيش

اعتادت آنّا غريغوريفنا على الحياة في ستاريا روسّا، وأحب دوستويفسكي تلك المدينة الصغيرة. وانتقلت الأسرة في عام 1875 من منزل غريبّي الصيفي (الذي أفاد دوستويفسكي مستقبلاً في وصفه لمنزل العجوز فيودور كارامازوف) إلى منزل الأدميرال ليونتيف الواسع الكبير لقضاء الخريف والشتاء بعد أن تعثر إيجاد شقة ملائمة لهم في بطرسبورغ.

وأنجبت آنّا في منزل ليونتيف طفلها الأخير - أليوشا (ألكسي) الذي تعلق بأبيه كثيراً بعدما كبُر قليلاً. فكان كلما ذهبت المربية إلى مكان ما، ينتهز الفرصة ويهرع إلى مكتب أبيه.

مع أن دوستويفسكي كان لا يصبر على مضايقة الأولاد له أثناء عمله، غير أنه استثنى أليوشا من ذلك، فكان يستقبله بابتسامة فرحة، أما الطفل فكان يستند إلى ركبتي والده، ويطالبه قائلاً:

- بابا - ساسا (يعني ساعة).

وكان الأطفال بحاجة للحليب الطازج، ولذلك استأجرت آنّا من أحد الناس بقرة حلوب لموسم واحد، وقد دفعت خمسين روبلاً للصيف.

وكان فاغنر، البروفيسور في جامعة بطرسبورغ، موجوداً في ستاريا روسّا للعلاج، وفي أحد اللقاءات قص على آنّا كيف التقى بفيودور دوستويفسكي: «قابله دوستويفسكي دون ترحيب، إذ كان يسأل المارين، إذا كانوا قد شاهدوا بقرة سمراء داكنة»:

- لماذا تسأل عن بقرة سمراء داكنة يا فيودور ميخائيلوفيتش؟

- سألته بعد أن ظننت أن فيودور ميخائيلوفيتش يريد أن يعرف طبيعة

الطقس ليوم الغد من لون أول بقرة يراها ، وقد انطلق إلى هدفه بكل عزيمة وإيمان.

- كيف، لماذا؟ تضايق - دوستويفسكي - أنا أبحث عن بقرتنا ، لقد عادت كل البقرات إلا بقرتنا».

- هذا شيء عجيب يا آنّا غريغوريفنا ، فنان الكلمة العظيم، صاحب العقل والخيال الخصب بالمثل العليا ، يسير في الطرقات باحثاً عن بقرة ما.. وأنهى فاغبر قصته.

سارت الحياة في ستاريا روسّا برتابة اعتيادية ، وكالعادة كان دوستويفسكي يعمل في الليل، وينهض في الحادية عشرة، كان يخرج ويشرب القهوة ويلاعب الأطفال، وكان يتحول إلى طفل مثلهم أثناء اللعب.

وفي الظهيرة يملي على آنّا مخطوطات روايته، ثم يتناولون الفطور ويخلدون للراحة. وفي الثالثة والنصف، كان دوستويفسكي يذهب إلى بقاليات وحوانيت بلوتنيكوف ليشتري مما أحضروه من بطرسبورغ من مواد غذائية. وبعد أن يعود يلاعب الأولاد من جديد ، وتعم السكينة البيت في الساعة العاشرة مساء ، فيجلس دوستويفسكي مع زوجته في الغرفة قليلاً ثم يذهب إلى مكتبه. وفجأة انقطعت سكينة هذه الحياة بوفاة ابنه أليوشا ، الذي لم يبلغ الثالثة من عمره بعد.

مات الطفل إثر نوبة صرع قوية. وحزن دوستويفسكي بشكل مأساوي على فقدان طفله، إذ كان يدرك أنه قد أصبح عجوزاً ولن يستطيع إنجاب الأطفال بعد الآن، أما آنّا فكانت تعمل جاهدة لتهدئتهن وخاصة أن النقّاد كانوا يقللون من أهمية دوستويفسكي ومن أهمية

مؤلفاته، دون أن يفهموها. غير أن القراء كانوا يتعلقون بها عاماً بعد آخر بقلوبهم وعقولهم. إذ كان دوستويفسكي يستمد قواه الروحية من الناس البسطاء، ويقنع نفسه قائلاً: «يجب أن أعيش ويجب أن أعمل»[1].



آنا دوستويفسكي (زوجة الكاتب)

[1] في عام 1877، اشترى دوستويفسكي منزل غريبّي الصيفي المؤلف من طابقين، إذ كان يفضله لموقعه على ضفة نهر بيريريتس. هذا المنزل الذي أصبح متحف دوستويفسكي فيما بعد. م.

# فتاة على الرصيف

سار دوستويفسكي في ذلك الزقاق، قرب سوق أبراكسين وفوزنيسينسكي، باحثاً عن أمكنة المدينة، التي يكثر فيها الفقر والدعارة، وتزدهر الجريمة.

كان الجو بارداً، فرفع دوستويفسكي ياقة معطفه مثل شاعر محبوب، إذ كان الوقت أواخر الخريف متأخراً وقد هاجرت الغربان «منذ زمن بعيد، قاصدة أمكنة الدفء والشمس».

وكانت المصابيح بالكاد تستطيع إضاءة يافطات محلات الشرب والدعارة، إذ كانت في تلك المحلات تسير حياة خاصة، أما الشارع فكان فارغاً، وقد خيم عليه الصقيع.

فجأة استرعى انتباه دوستويفسكي صوت نشيج فتاة صغيرة، لم تكن تطلب شيئاً ولم تشك من شيء، بل كانت تطلق نشيجاً خائفاً.

واستطلع دوستويفسكي المكان بدقة، وبصعوبة استطاع تمييز فتاة صغيرة على ركيزة في الشارع، لا يتجاوز عمرها ثماني سنوات.

كان وجهها نحيلاً، نحيلاً جداً... عيناها سوداوان واسعتان، وتغطي شعرها بمنديل ممزق، وفي قدميها حذاء عميق، وتلتحف سترة عتيقة مرقعة بغير اعتناء، ومن فتحة الصدر أطل وجه قط أشقر اللون.

- هل أنت تبكين يا طفلة؟ أين بيتك؟ - سألها فيودور ميخائيلوفيتش مشاركاً همومها - ما اسمك؟

- اسمي ماشكا (ماريا) وأعيش ليس بعيداً من هنا، هناك في القبو

- أجابت الفتاة، وشدت بيدها على السترة المهترئة مع القط.

ظن دوستويفسكي أن الطفلة تبكي لأنها لم تجد أحداً يعطيها صدقةً، ولذلك أخرج محفظته، وأخرج منها روبلاً فضياً ناصعاً.

- أيها القيصر... تلعثمت الفتاة إذ كانت ترى هيأته شبيهة بهيئة ألكسندر الثاني. يبدو أنك غاضب، جففت دموعها - هل تعطيني هذا. ولماذا؟ هل ستعقصني؟ إن زوج أمي يقرص ساقي بقوة مؤلمة، ويأمرني بالسكوت... بالسكوت...

واليوم جلب معه حساء مهلباً، وقطعة من القماش المزخوف، ثم راح يلوي يدي ويقرصني، واستطعت أن أهرب من بين يديه، وأنا جالسة الآن مع بوزيريك، إنه قط طيب ومتعلق بي، فأنا أطعمه.

- أنا أعطيك النقود لتشتري شيئاً تأكلينه - شرح دوستويفسكي - وإذا أردت أستطيع أن آخذك إلى المأوى.

- لا داعي لذلك، فهنالك الحالة صعبة، يضعونهم على الحبال و...

- هل الحالة عند أمك أفضل؟ - سأل دوستويفسكي.

- أفضل، أجابت الطفلة بقناعة. فأمي تمسد شعري وتشفق عليّ، وزوجها سيموت قريباً، هذا ما قاله الطبيب من المستشفى العسكري، سيلتهمه السل خلال أسبوع، وأخذت الروبل وأمسكته بشفتيها ثم وضعته خلف أذنها، ولم تجب على أسئلة دوستويفسكي، حتى أنها أدارت وجهها جانباً فغادرها دوستويفسكي.

الأطفال، الأطفال المساكين، فضلات المدينة، كم شاهد مثل هذه الحالات المأساوية عندنا وفي الخارج، الأطفال، الأطفال الفقراء.



بعد ثلاثة أشهر مرّ دوستويفسكي في ذلك الزقاق وشاهد تلك الركيزة وتذكر أنه التقى هنا بالضبط مع تلك الفتاة، صاحبة القط، وتأججت لديه مشاعر غريبة لمعرفة مصير تلك الفتاة.. ماذا حلّ بها؟ لابد له أن يدخل الحي ويسأل عنها موظفي الشرطة، الذين يقومون بمراقبة سكان الحي.

دخل دوستويفسكي بناء الشرطة الذي عبق بدخان السجائر، وتناثرت أعقابها، مع كثير من مزق الأوراق على طول الممرات، وتوزع بعض السادة هنا وهناك متسترين بستر وسدارات زيتية اللون، مرّ بعض من النساء الشابات المتزينات بقبعات فاقعة الألوان.

انتظر دوستويفسكي دوره في الدخول إلى المكتب.

- ماذا تريد؟ سأل الجالس خلف الطاولة بجلافة.

- أنا بحاجة لاستخراج وثيقة معلومات عن فتاة، فتاة فقيرة محتاجة، يجب إخراجها من البالوعة - قال دوستويفسكي منفعلاً.

- ماذا؟ وأية بالوعة هذه؟ هل أنت في كامل عقلك يا سيدي الكريم. فأنا لا أعرف رتبتك.

- أنا ضابط مسرح، هذا من قديم الزمان، أعمل في حقل الأدب، أكتب الكتب والمقالات.

- اسمك؟

- فيودور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي.

نهض المراقب عن كرسيه، إذ كان قد سمع، أن دوستويفسكي يُستقبل من كبار وجهاء الدولة، إن السادة الجنرلات يتناقشون في أعماله الأدبية، وهو بنفسه كإنسان فضولي قرأ «المهانون المذلون».

- أنا سعيد بالتعرف إليك يا فيودور ميخائيلوفيتش، ستحصل على الوثيقة في هذه الدقيقة. قال المراقب وقد بدل من لهجة حديثه.

رن الجرس، ودعا موظفاً شاباً يلبس سترة مع ربطة عنق مخططة زرقاء على الموضة.

- هذا هو السيد الكاتب دوستويفسكي يهتم بمصير فتاة - فأين تعيش؟ أرجو أن تلبي طلبه يا ميخائيل بيتروفيتش.

- وكيف لا، من لا يعرف السيد دوستويفسكي؟!

وخلال لحظات أصبحت الغرفة نظيفة، ولمعت طاولة الكتابة حتى البريق، ولم تعد ترى حتى رماد السجائر، وكانت الخزانة مليئة بالكتب الحكومية والتقارير والسجلات. بحثا مدة ساعتين واستغرب دوستويفسكي صبر ذلك الموظف.

- والآن سننظر في هذا - قال الموظف وهو يفتح سجلاً من السجلات الضخمة. وفيه وجدوا ما قد أدهش دوستويفسكي حتى كاد يفقد صوابه.

ماريا تشودنوفا، عمرها تسع سنوات، مسجلة كيتيمة في شقة الموظف إيفانيتسكي. أليس ذلك الموظف هو نفسه، الذي استضافه دوستويفسكي في المطعم منذ سنوات عديدة؟

- معجزة - قال دوستويفسكي ثم صاح - أوهام، أين والدتها وزوج والدتها.

- لحظة... وقرأ الشرطي الموظف ما كتب لديه من معلومات وأخبره، بأن الأب قد توفي من مرض السل الرئوي، أما والدتها يكترينا تشودنوفا، فقد توفيت عن عمر يناهز الاثنين والثلاثين عاماً من حمى

التوقيد. وقد أخذ الموظف إيفانيتسكي الفتاة برضائها وبالاتفاق مع بلدية ميشانسكايا. وشكر دوستويفسكي الموظف وأخرج محفظته، غير أن الموظف عارضه قائلاً:

- كنت أخذت نصف روبل من إنسان غيرك، أما منك يا فيودور ميخائيلوفيتش، صدقني لا يسمح لي ضميري بذلك، لكن سأصافحك بحرارة.

وفي الممر شاهد دوستويفسكي شرطياً. قد أسند رجلاً مخموراً على الحائط الوسخ وراح يلطمه بشدة على وجهه، أما المخمور فكان يحاول إزاحة رأسه ويصرخ بأعلى صوته:

- لا تضربني على وجهي يا ابن الكلبة، لا تضربني.

وصرخ الشرطي وهو يكيله ضرباً:

- وأنت يا سكير، لماذا تجر زوجتك على طول الرصيف من ضفائرها؟!

☆☆☆

كان إيفانيتسكي يقيم في غرفة استأجرها في شقة لأرملة عجوز، زوجة ضابط سابق واسمها أغرافينا دميتريفنا. وكانت الشقة صغيرة تتألف من غرفتين فقط، لكنها نظيفة. وقد فرشت صاحبة البيت أرض الشقة بحصير فلاحي مزركش مع ديوان، وحقيقة الأمر مغطى بمشمع عتيق رمادي اللون. وفي غرفته توجد طاولة كتابة وسرير، وكانت الستائر - المعلقة على النوافذ مشغولة بزركشة عجيبة، فعليها تصيح ديوك شموخة، وكانت أغرافينا دميتريفنا تدر المال من وراء عملها في تطريز الدانتيلا. ومعظم زبائنها من الموظفين المتوسطين، وكانت ترتاح

نفسياً للموظف المتواضع الهادئ إيفانيتسكي، ولليتيمة الطيبة الخدومة ماشا.

كان إيفانيتسكي يدفع آجار الغرفة بما يعادل آجار الشقة بأكملها وإضافة لذلك كان يتناول طعامه مع الطفلة عند صاحبة البيت مقابل خمسة عشر روبلاً إضافياً في الشهر. وهناك قاطن آخر هو القط بوزيريك الأشقر، ينام على حصيرة خاصة به، قرب الموقد في المطبخ.

وكانت ماشا تدعو إيفانيتسكي بكلمة بابا، وهو يعاملها بطيبة وحنان الأب حقاً، وكانت تدرس الآن في الصف الرابع في البانسيون الخاص للبنات. كانت تدرس جيداً وإيفانيتسكي يساعدها في تحضير دروسها.

لقد تبناها إيفانيتسكي نتيجة ظروف جرت أمامه. فعندما توفيت والدة ماشا، جاءت مربيتان شريرتان من المأوى، لم يسمحا لها بأخذ «بوزيريك» معها. خطفتا القط من يديها، وبدون قلب رمتاه على الأرض، حتى أنه صاح شاكياً، فما كان من الفتاة ماشا إلا أن أجهشت باكية، وفي تلك اللحظة كان إيفانيتسكي يصعد الدرجات إلى بيته، وبعد أن عرف ما حصل، غضب أشد الغضب.

- أنتما بدون قلب، وتدعيان أنكما مربيات، وأكد لماشا تحت تأثير الغضب والانفعال قائلاً: - سأتبناك ونأخذ القط معنا.

وركضت ماشا إليه، وتعلقت به مستنجدة، وقبلت يده. كانت تعرف إيفانيتسكي الذي يعيش في ذلك البيت.

وبما أن سلوكه الحسن كان معروفاً في الحي فاستطاع أن يحصل على موافقة بلدية ميشانسكايا. وبعد كافة الإجراءات الحكومية، أصبحت الفتاة تعيش عنده.

واشترى إيفانيتسكي لماشا مريولاً أبيض، وآخر أسود ومعطفاً مقبولاً ولباس المدرسة، أما الملابس الداخلية فقد اشترتها صاحبة البيت وعاشوا جميعاً بمودة وصداقة.

وكانت الطفلة تنام على الصندوق في غرفة صاحبة البيت، وتدرس في غرفة إيفانيتسكي.

وكان إيفانيتسكي خطاطاً ممتازاً، يكتب خطاً واضحاً أنيقاً، ولهذا كانوا يرسلون إليه الأوراق المهمة المرسلة إلى الوزارات والإدارات ليكتبها بخط يده، لقاء أجر خاص. ومثل هذا الدخل الإضافي لم يكن بدون أهمية للموظفين.

لقد سر فيودور ميخائيلوفيتش جداً بكل هذا، حتى أنه ضم إلى صدره إيفانيتسكي ، وقال:

- أنا معجب بك أيها الأب، أنت إنسان عظيم بشكل لا يقدر.

- ماذا تقول يا فيودور ميخائيلوفيتش؟ فالفضل يعود إليك أنت. لقد تغيرت منذ تلك الأمسية في المطعم - من الصعب أن أقص عليك كيف جرى ذلك، ربما جرى تدريجياً. لقد فهمت آنذاك، أن على المرء أن يفعل الخير للآخرين. لقد فضلت تلك الفتاة التاجر الغني، ولا يجوز أن أدمن على الشراب بسبب ذلك، فقتّرت على نفسي - قطعة من الخبز وقطعة من القماش، وصرت أدخن أقل وألف السجائر بنفسي.

- رائع، رائع، هز دوستويفسكي رأسه موافقاً. وأنا أفعل ذلك أيضاً.

وهنا حدث ما حدث مع ماشا فقدمت لها المساعدة. قلت لنفسي لأفعل فعلاً خيراً..

لا تفكر أنني أمتدح نفسي - لا ، سامحني يا ربي. لدى كل إنسان

شيء من الخير حتى لو كان في تلك الحالة التي كنت فيها ، والآن هذا مفهوم واضح بالنسبة لي. عندئذٍ - فهمت أنه من الضروري أن أؤمن بالأفضل.

- صحيح قال دوستويفسكي، يجب أن تؤمن بكل قلبك وروحك.

- لقد قلت لنفسي: ألن تصبح خادمة ، أو مربية أو شيئاً أسوأ من ذلك...؟ إذ لم تصبح سونيا مارميلادوفا بإرادتها صاحبة بطاقة صفراء. لا ، ليس بإرادتها... فقررت أن أتبنى ماشا ، أن أربيها ، وفكرت سأفعل خيراً عندما أضع ولو واحدة، واحدة فقط على الدرب السليم - وتابع إيفانيتسكي اعترافه.

- وبعد ذلك أحببتها كطفلة لي. فأنا لا أستطيع الانتظار، فإذا تأخرت في المدرسة أو في الملعب فاركض إلى الشارع وانتظرها. وهكذا أصبحت الحياة أسهل بالنسبة لي، نعم أسهل.

وابتسم إيفانيتسكي ونظر إلى القط الذي قفز إلى ركبتيه.

عاد دوستويفسكي إلى بيته وهو يفكر: «آه كم من المفاجآت، - وتوقف في منتصف الطريق، - كيف نسيت أن أشتري شيئاً طيباً لها ، ودخل إلى أحد المحلات وانتقى علبة سكاكر جميلة مربوطة بشريط سماوي، واشترى رطلاً من السجق للقط «بوزيريك» ومن الدكان الثاني ابتاع تبغاً ثميناً ولفائف.

كان إيفانيتسكي قد ذهب إلى البيت، فأعطى دوستويفسكي الهدايا للسيدة صاحبة البيت. وطوال المساء ظل مزاج دوستويفسكي مسروراً ، حتى أنه كان يردد لحناً بدون كلمات.

☆☆☆

# لدى الأمير المعظم

كان قسطنطين [1] يخطو في مكتبه بعصبية جيئة وذهاباً. لقد اجتمع المدعوون في غرفة الضيافة الصغيرة. وكان من بنيهم مفتش الدولة فيليبوف وبوبيدونوستسيف والأميرة بيلوسيلسكايا، بيلوزيرسكايا والسناتور فاسيلتشيكوف والكونتيسة شيريميتيفا إضافة لعدد من السادة الضباط.

ولم تخرج والدة قسطنطين من حجرتها لأنها كانت تعاني من مرض الشقيقة، فاهتم بالضيوف الشاب شيريميتف. وكان صوته الغض الرنان مسموعاً إلى مكتب الأمير.

أما الأمير الطويل القامة والنحيف، فكان يهز شاربيه وهو مرتد بزته العسكرية. مستغرباً تأخر دوستويفسكي عن الموعد؛ مع أنه معروف بدقة مواعيده، وأخيراً سمع الجرس في الأسفل، وأخبره الخادم قائلاً:

- السيد دوستويفسكي.

خرج قسطنطين إلى الصالون في الطابق الأسفل، حيث كان الخادم يساعد دوستويفسكي على خلع معطفه.

- فيودور ميخائيلوفيتش - قال الأمير وشد بيده مصافحاً الكاتب، كم أنا سعيد. لقد انتظرناك طويلاً. حتى ظننت أنك لن تشرفنا بزيارتك، أو أنك مرضت أو كنت مشغولاً.

تنفس دوستويفسكي قليلاً، وجلس على الأريكة وقال:

---

[1] قسطنطين، هو ابن أخي القيصر الكسندر الثاني: كان كاتباً وشاعراً وألّف مأساة «القيصر اليهودي»، وعدداً من الأشعار والأغاني. مات فقيراً في إحدى المستشفيات العسكرية. م.

- اعذرني يا سمو الأمير، اضطررت للجلوس على أحد المقاعد في حديقة ليتني ساد. لقد أهلكني السعال.

- أنت تدخن كثيراً يا فيودور ميخائيلوفيتش.

وابتسم دوستويفسكي وقال:

- لقد قال بطرس الأول، أن التبغ يطرد الرطوبة. ومرة أخرى أرجو قبول اعتذاري.

- بماذا تتكرم علينا اليوم؟

لقد جلبت «الجريمة والعقاب» فأنا أحب الحوار الذي جرى بين راديون راسكولنيكوف مع الموظف مارميلادوف في الحانة، هل تتذكره؟

- كيف لا - صاح الأمير بسعادة - هذا هو فصلي المحبب. مأساة عارية حتى العظام، إضافة للعظمة، فأنت هناك فنان - عالم نفس عظيم.

- أوه، ماذا تقول! ارتبك فيودور ميخائيلوفيتش حتى أنه لاح بيده. ثم صعدا سوية إلى الطابق الثاني ودخلا غرفة الضيوف الصغيرة.

استقبله الحاضرون بكثير من الاحترام، وهذا ما سر دوستويفسكي وفكّر في نفسه: «يبدون كرماء... كيف ذلك، فهم أرستقراطيون، أمراء معظمون وأميرات معظمات، أما أنا فلست سوى ملازم مسرح». لكن ذلك مجرد ارتياح، إذ كان الحاضرون في حقيقة الأمر يقدرونه عالياً، حتى كادوا يعتبرونه نبياً. وأشرق وجه بوبيدونوستسيف الطويل المصفر بابتسامة رقيقة. أما الأميرة بيلوسيلسكايا - بيلوزيرسكايا فقد صافحته بيديها الاثنتين بكثير من الحماس.

وعلى الطاولة المستديرة كانت فناجين الشاي المنتظمة بشكل أنيق، ونبيذ خفيف، وفواكه وبسكويت.

- أين تفضل الجلوس؟ - سأل الأمير.

- إذا سمحت يا سمو الأمير فسأجلس هنا قرب الشمعدان.

وبعد أن شرب الجميع قليلاً من الشاي - اتجهت أنظارهم إلى دوستويفسكي الذي فتح كتابه وبدأ.



ف. دوستويفسكي

# تلميذ دوستويفسكي

سار ألكسندر فاسيليفتش كروغلوف الأديب الناشئ، القادم من فولوغدا في شارع ليغوفكا، الذي يسكنه الموظفون الصغار والصناع والحرفيون.

كان كروغلوف، عادي الملبس، بل فقير الملبس معتل الوجه، ويضع نظارة على عينيه. وبدا الشارع في ذلك الجو الماطر والرياح القوية، بقناطره القديمة الوسخة وبيوته التي فقدت ألوانها، أشبه برؤية في الحلم.

كان كروغلوف يسير متمهلاً وينظر يميناً ويساراً، باحثاً عن البيت الذي يقصده ويحتاج إليه للغاية. أنه بيت دوستويفسكي.

إن مجرد ذكر اسم دوستويفسكي يصيب رأس كروغلوف بالدوار، فكيف سيدخل إليه؟ إلى مؤلف «ذكريات من بيت الموتى» و«الجريمة والعقاب» و«الأبله»، كيف سيدخل على مكتبه ويسأله عن روايته؟ تلك الرواية التي خرزها وغلفها بأناقة قبل إرسالها بالبريد إلى دوستويفسكي.

في الرواية شاب عمره عشرون عاماً لم ينهِ الثانوية، ويعمل منذ شهرين في دائرة حكومية، كان يحلل مشاكل السعادة العائلية والإخلاص الزوجي ومسائل الدين والأخلاق. بكلمة ثانية، رواية.

ماذا لديه؟ فالكسندر كروغلوف ابن مفتش المعاهد الشعبية ماذا لديه هو بالذات؟ ماذا لديه في روحه؟ لقد كتب ثلاث أو أربع مقالات وبعض الأشعار التي نالت إعجاب الكتاب والصحفيين الكبار، الذين كانوا يعيشون في منفى فولوغودسكايا، ويتماطفون معه أمثال بيوتر

لافروفيتش لافروف، نيكولاي فاسيليفتش شيلغونوي. عن أي شيء كتب؟ عن الحياة في مقاطعة فولوغدا، عن النساء الفقيرات العاملات في التطريز، والمسلوبات من قبل العابرين الوقحين والتجار.

لقد جلب معه إلى بطرسبورغ مقالة كتبت منذ عام عن نضال لومونوسوف العظيم والشاق واللامحتمل مع الأكاديميين الأغبياء.

لكن الرواية. يا إلهي! كيف تجرأ وأرسلها؟ وإلى من؟

والحقيقة أن أصدقاءه حذروه قبل أن يرسلها، لكن تحذيرهم كان آتياً من وجهة نظر أخرى: «كيف لا تخجل أن تتعامل مع دوستويفسكي مؤلف «الشياطين» والذي يعمل لدى الأمير ميشيرسكي محرراً «للمواطن» ذات النزعة الملكية؟ ألم يبع نفسه لقاء صحن من حساء العدس؟ والذي يجمع بين السجين السياسي والأمير. ولماذا يحتاج كروغلوف إلى نصيحة محرر «المواطن» بعد أن شجعه لافروف بنفسه»؟ - هذا ما قاله له.

غير أن كروغلوف اعتقد أن دوستويفسكي يقوم بتحرير «المواطن» لحاجته المادية «فقد كان في ضائقة مالية)، وكان الناس يقرؤون المجلة لأجل ما يكتبه دوستويفسكي فقط في يوميات كاتب. فقط، وكم كانت مقالاته مميزة عن بقية صفحات المجلة الساذجة. كم في مقالاته من الموهبة، وكيف كانت تتطرق إلى المواضيع الأكثر أهمية. فمن الممكن أحياناً أن لا يتفق المرء مع رأي دوستويفسكي، غير أنه بكتابته يجبرك على التفكير ولا يدعك لامبالياً.

ومر بالقرب منه ثلاثة صناع مخمورين، وقد ملؤوا الرصيف بأجسامهم الضخمة، وكانوا يتحادثون فيما بينهم.

- لابد أن يكون طالباً ذلك الشاب ذو النظارات، - قال أحدهم محدداً شخصية كروغلوف بعد أن أعاره انتباهه.

- كل العلائم تدل على أنه مصاب بالسل - قال آخر.

- صحيح فهو يشبه المسلول. لقد لاحظوا ذلك بدقة، ووافق كروغلوف على رأيهم في ذهنه. لكن بدون أهمية - الأهم ما سيقوله دوستويفسكي»...

هذا هو زقاق غوسيف القذر، وهنا في تلك الزاوية يقع بيت دوستويفسكي أنه يشبه تلك البيوت التي يجد فيها الكاتب أبطاله، أنه مثلهم تماماً سوداوي ومنته.

اعتلى الطالب الدرجات على الطابق الثالث، ودق ضاغط الجرس فخرجت دقاته هادئة، لا تشبه دقات جرس راسكولنيكوف العاصفة المتهورة.

فتحت الباب فتاة.

- هل فيودور ميخائيلوفيتش في البيت؟

- نعم في البيت - وابتعدت الفتاة جانباً لتفسح له الطريق - تفضل.

تبين لكروغلوف أن حالة الشقة متواضعة، معتدلة وغرفها ليست كبيرة والأثاث بسيط. وكان يسمع من مكتب دوستويفسكي حواراً بينه وبين رجل آخر.

- سامحني يا فيودور ألكسندروفيتش. أتمنى أن لا يحصل أي تأخير. يجب أن يخرج العدد في الوقت المحدد، في موعده.

- لا تقلق يا فيودور ميخائيلوفيتش، كل شيء سيتم في دقة.

وظهر في الباب سيد في لباس أنيق يحمل حقيبة إدارية بيده.

- هل أنت قادم لمقابلة المحرر؟ ما اسمك؟ سأبلغ فيودور ميخائيلوفيتش حالاً.

وسُمع صوت دوستويفسكي.

- دعه يدخل.

كان المكتب بسيطاً للغاية، حتى يكاد لا يصدق أن دوستويفسكي يمضي معظم أوقاته هنا: ديوان مغطى بقماش سميك، أحمر اللون... ينام عليه دوستويفسكي وقت الحاجة. شمعدان ومحبرة قديمة، وعلبة تبغ معدنية مع لفائف وبعض الكتب والصحف على الطاولة. وقرب الطاولة أريكة خشبية متواضعة، وبالقرب منها كان كرسي لجلوس المراجعين، والزوار. وعلى الجانب طاولة صغيرة، عليها مخطوطات وأطباق أوراق. والخزانة مليئة بالكتب. وعلقت على الجدران صور أقرباء دوستويفسكي وصورته الشخصية.

استقبل دوستويفسكي كروغلوف في الباب، وتطلع إليه من تحت حاجبيه المشدودين بعينيه الرماديتين، وراح يراقب الزائر ويتفحصه بدقة.

- نعم، نعم. ألكسندر فاسيليفتش كروغلوف من فولوغدا. لقد قرأت مخطوطتك - وبحث بين الأطباق، وأخرج دفتراً سميكاً،

- هذه هي.

- نعم يا فيودور ميخائيلوفيتش.

ولامس دوستويفسكي بأصابعه النحيلة لحيته الروسية.

- اجلس، تفضل. نعم، نعم لقد قرأت روايتك - وضرب الطاولة بالمخطوطة - قرأتها. ثم راح يتحدث بحزن وبسرعة: «أنت ما زلت شاباً»، لم تر من الحياة شيئاً بعد. كيف تتجرأ وتعالج مثل هذا الموضوع المعقد

الصعب؟ وخطا دوستويفسكي في المكتب بعصبية - أنت تخطو خطوات عريضة، لكنك لا تملك القدرة والقوة الكافية.

جلس كروغلوف على طرف الكرسي وقد تراءى له أن دوستويفسكي سيطرده قريباً مكللاً بعاره. وتابع دوستويفسكي:

- أنت تحتاج لعمق في المعرفة. من أين لك هذه المعرفة؟ أية أوضاع وحالات تناقش وتعالج؟ الأكثر درامية؟ نفسية الأم التي فقدت ابنتها... معاناة الزوج الذي خانته زوجته، وفي أية ظروف غريبة؟... ظروف غريبة، ظروف غريبة وغير معقولة. والدين، ماذا تفهم فيه وأنت ما تزال في سن العشرين. ماذا؟ لماذا تتناول حياة الأرستقراطيين؟ هل تعرف حياتهم؟ هل شاهدت أرستقراطيين حقيقيين؟

- لا - همس كروغلوف.

- لكنك تكتب عنهم. الأفضل أن تتحدث عن نفسك.

وحاول كروغلوف أن يتحدث، غير أنه تلعثم بكلمات ليست واضحة.

- هل مدينتك جيدة؟ - سأل دوستويفسكي فجأة.

- حسب الشخص يا فيودور ميخائيلوفيتش. بالنسبة لي يعجبني موطني الأصلي فيليكي أوستيوغ وفولوغدا لكن الحياة - الحياة فيها جميلة. أما المدينة نفسها، ففيها المعابد التاريخية والبيوت الخشبية، والخضار كثيرة عندنا، والهواء ليس كهواء بطرسبورغ.

- نعم هذا شبيه بستاريا روسّا... تقول أنك تعمل موظفاً معيداً. هذا لا يكفي.

طبعاً لا يجوز أن تتحدث عن نفسك فقط، لكنك تحتاج إلى التجربة الأدبية والقدرة على التصور والتنبؤ، يجب أن تمتلك قوة خاصة،

قوة كتابية، والتي يجب أن تنميها باستمرار، بالقراءة المستمرة بالأفكار والعمل. نعم. - اقترب دوستويفسكي من كروغلوف وتحولت نبرة صوته فجأة وأصبحت طيبة، ثاقبة مشجعة. لا تيأس أيها السيد، من الغباء أن تنزعج، فأنا أقول ذلك من أجلك أنت، لديك الموهبة وستصبح فناناً، لكنك بحاجة لصقل هذه الموهبة، عليك أن تقرأ كثيراً، أن تتعلم كثيراً، أن تراقب الحياة، تلاحظها، أن لا تخاف من الأوساخ والرداءة، الكاتب ليس فتاة مدللة. يجب أن لا تؤلف، بل عليك أن تصور الحياة، هل تسمعني؟ (وقال دوستويفسكي الكثير من الأشياء الضرورية والطيبة للشاب كروغلوف) وعندما ودَّعه، طلب منه بكثير من الاهتمام:

- لا تستأ.

- لا، أجاب الكسندر بكل صدق - أنا شاكر جداً.

- دع الرواية جانباً الآن. ستكبر وتقرؤها وستضحك من نفسك. وبعد أن أموت ستتذكر وتقول كان دوستويفسكي على حق. الأهم أن تكون طموحاً، وأن تكتب.

اكتب وسيخرج منك شيء ما. صدقني لا ترم القلم.

وشد دوستويفسكي بحرارة على يد كروغلوف مودِّعاً ثم صاح عندما أصبح كروغلوف على قنطرة الدرج:

- من الضروري أن تكتب.

خرج كروغلوف من المدخل، وقد ركب له جناحان، سار دون أن يلاحظ الشوارع، سار مخموراً بأفكاره، وفي أذنيه تتردد كلمات دوستويفسكي «اكتب، اكتب، لديك الموهبة، أنت تستطيع أن تكتب».

وخيَّم الظلام على المدينة، وأشعلت المصابيح، والناس تتحرك كأشباح في ضباب بطرسبورغ الرطب. وتناهى لكروغلوف من بوابة إحدى الحانات صوت جنائزي رنيم، وموسيقا أكرديون، ثم صوت مخمور يصيح بقوة هائلة:

- لقد مت، إلى الأبد.

«أما أنا فلم أمت، فكر كروغلوف بسعادة، - لم أمت».

لم يلاحظ كروغلوف كيف وصل إلى شارع نيفسكي بروسبكت المشع بأنواره، وراحت عيناه تلتقي بالنساء المتزينات بقبعات مزخرفة بأقمشة شفافة، وبضباط يخشخشون بسيوفهم ومهاميزهم، بدلاً من الصناع في شارع ليغوفكا. ووقفت قرب بوابات المطاعم عربات الأغنياء والحوذيين، الذين تربعوا عليها مثل رعاة الماعز. أما الكسندر كروغلوف، فكان يسير في الشارع، وهو لا يسمع في أذنيه سوى كلمات دوستويفسكي.

☆☆☆

ورماه قدره إلى طرق مختلفة، فقد عمل مكتبياً في مكتبة بطرسبورغ الكبيرة. وكتب للصحف والمجلات. وتنقل إلى أمكنة عديدة في وطنه الكبير. وقد أعجبته أكثر من غيرها أقضية منطقة زيريانسكيا الواسعة الأطراف، القليلة السكان التابعة لمحافظة فولوغدا.

وكان كروغلوف كثيراً ما يردد الحكمة الشعبية لشعب الكومي «الإنسان في وحدته نصف إنسان». وأينما حل كروغلوف، كان يتذكر وجه دوستويفسكي. وكان تأثير دوستويفسكي العميق على وعيه واضحاً في كل ما كتبه.

وهنا يتحدث عن حياة فلاح، «رجل الغابة» الكومي.

ويتميز كيركا (بيت) بالضخامة، حتى أنهم لم يكونوا يبنون العنابر الصغيرة، لكثرة أشجار الصنوبر في الغابات الكثيفة المحيطة بهم.

وهنا استضافوا كروغلوف بكرم وأطعموه أرغفة الخبز الطيبة المصنوعة من دقيق الشعير، والمدهونة بالزبدة، وفطائر سمك، محشوة بسمكة كاملة، نظفت من داخلها وبقيت حراشفها. وقدموا له اللفت المسلوق، وعليه الزبدة واللبن. ويظن المرء أن كل شيء هنا في حالة جيدة، البيت المدعم القوي، فطائر الخضار، واللبن...

وهنا يمتدح ألكسندر فاسيليفتش الخبز، ويجيبه الفلاح «حمداً لله، لم نحتج لأكل العصيدة حتى الآن».

وهنا تبدأ الكلمات المرة.

«آه من تلك العصيدة. عصيدة، الخبز من التنوب ومن قشور الحور مع قليل من الدقيق، عصيدة - خبز، عصيدة - عصيدة.

مرة تناولت قليلاً من تلك العصيدة وظننت أن أمعائي لابد أن تلتهب - وينهي حديثه بتأثر بالغ: لكنهم يأكلونها. يأكلونها ويموتون».

نعم هذا ما هو مرعب «يموتون».

وتصطبغ مناظر منطقة زيريانسكي بالألوان الحزينة. مع أن الطبيعة غنية والحيوانات كثيرة، ومع ذلك يتناولون العصيدة. فالتجار يدفعون الفلوس للحيوانات المصادة، إضافة لصعوبة الوصول إلى مدينة كومي - زيرياني، فالمنطقة مترامية الأطراف.

«نسافر لليوم الثالث والخريف الممطر العبوس يحيط بنا من كل الجهات، وللمرة الثالثة هبطت الغيوم الداكنة السوداء على الأرض،

واختلطت الأشياء ببعضها بعضاً، تحولت إلى شيء يصعب تميزه، ورذاذ المطر - الذي يدعى كامد بلغتهم «جيجير» يهطل ويلذع الجسد ببرودته، ويبعث الكآبة في النفس».

هنا تبدو بشكل واضح لهجة المؤلف القريبة جداً من لهجة دوستويفسكي.

وفي صفحات ديوان شعري آخر لكروغلوف، أضيفت إلى صفحاته قصة حب لا ينفصم عراه، بين شاب وفتاة في ظروف شبيهة جداً بظروف وحالات «المهانون المذلون».

☆☆☆

عمل كروغلوف في آخر أيام حياته ناشراً ومحرراً في مجلة مصورة صغيرة تصدر في موسكو، تدعى «المشعل» ذات ميول سلافية. وخلال حياته القصيرة نسبياً (توفي في موسكو عام 1915 عن عمر لا يتجاوز 62 عاماً). كتب العديد من المؤلفات للصغار والكبار. وقص كروغلوف في مذكراته التي نشرها في «البشير التاريخي» عن لقاءاته وتعارفه مع كتاب وصحفيين، كان من بينهم ن. ف. شيلغونوف، وب. ل. لافروف، و ن. ا. نيكراسوف، و ا. ب. تشيخوف وغيرهم. وكثيراً ما كان يلتقي مع ابنه بلده ف. آ. غيلياروفسكي. والتقى كروغلوف مع دوستويفسكي مرتين فيما بعد:

الأولى، عندما كان يسير مع طالب صديق له في شارع نيفسكي بوسبكت، ومرّ دوستويفسكي في ذلك الوقت راكباً على عربة، فخلع الطالب سدارته عن رأسه وانحنى محيياً دوستويفسكي فسأله كروغلوف:

- هل تعرف السيد دوستويفسكي؟

- لا - أجاب الطالب - شخصياً لم أتعرف إليه، لكنني عندما أتواجد في موسكو فأنا أقف حاسر الرأس أمام تمثال بوشكين. ودوستويفسكي بالنسبة لي كاتب عظيم مجّد روسيا. وأنا أنحني لهذا المجد.

لقد هزت كلمات الطالب مشاعر كروغلوف.

- أي إنسان عظيم أنت؟ - امتدح كروغلوف الطالب.

وكان كروغلوف سعيداً عندما استلم رسالة من طالبة يعرفها من فولوغدا. كانت تتبادل معه الآراء والأفكار حول الأدب، وقد كتبت له مرة تقول: «إنني أحترم وأقدّر دوستويفسكي أكثر من بقية الكتّاب، فقد أصبح في الأعوام الأخيرة ليس روائياً بالنسبة لي، بل ومعلماً أيضاً».

وكان لقاؤه الأخير مع دوستويفسكي، قبل موت الأخير بقليل ففي عام 1880 عمل كروغلوف في صحيفة «روسيا» التي يصدرها الرأسمالي الأورالي الكبير ديميدوف. وكان كروغلوف مسؤولاً عن التعليقات الصحفية ويوقعها باسم «روسي»، والتقى دوستويفسكي في إدارة التحرير.

كان دوستويفسكي قد خرج لتوه من مكتب المحرر. فبادره كروغلوف الحديث:

- ألم تعرفني يا فيودور ميخائيلوفيتش؟

توقف دوستويفسكي:

- لقد رأيت، رأيتك، في مكان ما - ونظر إليه متمعناً.

- لقد أرسلت لك منذ عدة أعوام مضت مخطوطة رواية من فولوغدا وكنيتي كروغلوف.

وأومأ دوستويفسكي برأسه موافقاً.

- إذاً عليك بكتابة القصص القصيرة. بعد ذلك تنتقل لكتابة الرواية، وذلك إذا احتجت، إذا احتجت... وماذا تفعل الآن؟

- اكتب تعليقات صحفية.

عندئذٍ تذكر دوستويفسكي محدثه.

- آه يا عزيزي - إنني سعيد جداً بلقائك. لقد قرأت قصتك الأخيرة «بدون دبلوم» أنها قصة جيدة. وأين روايتك تلك؟

- مزقتها.

ووضع دوستويفسكي يده على كتف كروغلوف وقال:

- عليك أن لا تتولع في ذلك كثيراً، وأن لا تحمل كثيراً من الأعباء، وأن لا تدوس على الآخرين، واحترم من يعمل بشرف وإخلاص.

كان منظر دوستويفسكي تعباً، وراح يسعل طويلاً دون أن يتوقف.

لقد قاسى كروغلوف كثيراً بعد موت دوستويفسكي. مرض، ولم يعد يستطيع الكتابة بسهولة كما كان يفعل، ووضع كتاباً لذكرى الكاتب دوستويفسكي بعنوان «دوستويفسكي للأطفال في سن المدرسة» [1].

وكان يتردد على ستاريا روسّا، وكتب عنها مقالة وصف فيها منزل دوستويفسكي.

☆☆☆

---

[1] لقد ذكر اسم ا. ف. كروغلوف في موسوعة بروكهاوس و إيفرون عندما كان على قيد الحياة وفي طبعة «متحف الكتاب والفنانين الروس عام 1901» يوجد إضافة لصور تشيخوف وغرزسكي وغارشين، صورة كروغلوف.

ونشرت في بارس في طبعات خاصة كتبه «من الطفولة الذهبية» و«إيفان إيفانوفيتش وشركاه».

# الإخوة كارامازوف

كان المساء وراء نافذة مكتب فيودور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي، المضاء بالشموع المشتعلة.

جلس دوستويفسكي خلف طاولته يفكر.

يفكر بأسرته، بزوجته، بعمله. كم عليه أن يعمل؟ والصحة لا تسمح له بذلك، وتشرف سنوات العمر على عام الستين. إنه لمن المستحيل إيقاف الزمن.

من حسن الحظ أن آنّا معه، بالقرب منه. كم كانت الحياة صعبة من دونها! أنها امرأة رائعة. لقد تحسنت الحالة المادية. كم كانت صعبة، إلى أية درجة من الصعوبة، والآن حمداً لله عائشون.

تذكر كم عانت وهي شابة (كانت في العشرين من عمرها) من رهن الحاجيات، وفاة الطفلة الأولى، ومن التهديد الذي تلقاه زوجها من التاجر الألماني... تحملت كل ذلك، ومع ذلك لم تفقد شيئاً من غنائها الروحي. كانت تعجب بمتاحف فلورنسا، وقد ملأت عدداً من الكتب برموز الاختزال، مسجلة انطباعاتها عن الآثار واللوحات التي شاهدتها.

كانت معه دائماً، لا تفارقه أبداً، إنها رفيقة الدرب المخلصة. وها هو جالس تعب في مكتبه. الظلام وراء النافذة وعلى الطاولة الأوراق المبعثرة... عليه أن يكتب، لكنه يفكر بزوجته المتفانية. كانت محافظة جداً، لكن إذا منحته الحرية فسينطلق هو والأولاد في هذا العالم.

لقد أخذت آنّا على عاتقها كل هموم البيت، وهذا يعني أنها فرغته من أجل عمله الأساسي. لقد أصبحت أول امرأة روسية، تنشر مؤلفاته التي نشرت في المجلات. ومن هذا العمل كانت تحصل على المال.

لنأخذ هذه الحادثة الصغيرة اللطيفة. لقد لمحت آنّا غرريغوريفنا للكونتيسة أرملة ألكسي قسطنطينوفيتش تولستوي، عن رغبة زوجها في امتلاك صورة كبيرة لـ «مادونا السيستين»، وها هي اللوحة الآن معلقة على الجدار فوق الديوان في إطار جميل، وعليها زجاج شفاف.

ينهض دوستويفسكي، يدفع بالكنبة جانباً، يخطو داخل المكتب..

نعم إنه يحب زوجته العزيزة آنّا. لقد كتب لها مرة من إمس.. «إنني أقبلك في خيالي كل دقيقة». وخلف النافذة زقاق كوزنيتشني المظلم. ودوستويفسكي يخطو داخل مكتبه، يدخن.

يتذكر المصيبة التي حصلت منذ مدة ليست طويلة. موت ابنه الحبيب ألكسي من نوبة صرع شديدة. هذا الموت الذي عصر قلبه، أوه كيف عصره؟! كان طفلاً ذكياً. والآن، لا وجود لذلك الطفل الصغير الدافئ، لا وجود لـ ألكسي فيودورفيتش دوستويفسكي. لقد غادر الحياة... وكانت آنّا تهدّئ من روعه.

- لا داعي أن تقتل نفسك يا فيديا، فلدينا طفلان، ولديك عمل يحتاجه الناس. يجب أن نعيش يا فيديا.

نعم عليه أن يعيش. صعب عليه، لكن يتوجب ذلك، عندئذٍ قال لزوجته:

- آنيا- لقد مات ألكسي فيودورفيتش دوستويفسكي، لكن ألكسي كارامازوف، الذي أرى فيه المستقبل، جيل ابننا، سيبقى حياً....

كان يحلم بمتابعة الرواية، بعد أن انتهى من كتابة الرواية الأولى. لقد كتب في مقدمة «الإخوة كارامازوف». «الرواية الثانية - هي الأهم - ففيها نشاط وعمل بطولي في زمننا الحاضر، في زمننا الآتي بالضبط».

وكانت تتكرر زيارة الطالب كارامازوف، الذي أطلق النار على القيصر في أحلامه الليلية. وكان دوستويفسكي يتساءل: أليس من المحتمل أن يكون قدر ذلك الطالب الذي أعدم هو قدر ألكسي؟

لأكتب بسرعة الرواية الأولى.

لقد بذل دوستويفسكي في كتابه «الإخوة كارامازوف» طاقته القصوى، ففي عام 1878 لم يكن قد وضع المخطط فقط (كان المخطط أصعب مرحلة بالنسبة له)، بل كتب حوالي مئتين من الصفحات بخط يده. والتي طبعت في كانون الثاني في «البشير الروسي» لعام 1879.

ولقد انتهى دوستويفسكي من كتابة الإخوة كارامازوف قبل ثلاثة شهور فقط من وفاته، في بداية شهر تشرين ثاني عام 1880.

«وهكذا انتهيت من كتابة الرواية: عملت فيها ثلاثة أعوام، طبعتها مدة عامين. إنها لحظة مهمة من لحظات حياتي».

كان يكتب ويرسل الفصل تلو الآخر إلى موسكو، إلى المحرر لوبيموف.

وكان دوستويفسكي يعطي أهمية خاصة لانطباعات آنا عن الرواية أثناء إملائه «الإخوة كارامازوف» إذ كانت تحس دائماً بما سيعجب القراء.

لكنها خافت من شيء واحد في الرواية، وذلك ناتج عن كونها امرأة مؤمنة لا يتبادر الشك لحظة إلى ذهنها في صحة تعاليم الكنيسة. خافت من القوة المدهشة في نفي الركائز الدينية، التي لم يصفها فيودور ميخائيلوفيتش بكلام أبطاله. وتراءى لها أن دوستويفسكي المؤمن الشديد الإيمان في المسيح وفي الحياة الأبدية، ينبعث من جديد في شخصية إيفان كارامازوف.

وتذكرت آنّا ما قاله لها دوستويفسكي عندما كانا في الخارج، وعندما فكر بكتابة رواية من خمس قصص «حياة مذنب كبير».

- أتعرفين يا آنيا؟ أريد أن أطرق فكرة هائلة، فكرة ترهقني من أيام شبابي - عن وجود الله - هل موجود هو أم لا؟ إن بطلي يبدو متعصباً دينياً أحياناً وملحداً في لحظات أخرى، مؤمناً في لحظة، ملحداً في أخرى.

كانت آنّا ترتعش أثناء اختزالها لرواية «الإخوة كارامازوف»، ترتعش من مناقشة إيفان للهرمونيا الإلهية.

أوه! بأية قوة كان يدوي صوت دوستويفسكي، عندما يقرأ عن عصيان.. إيفان كارامازوف، الذي يحادث ألكسي عن الطفل المعذب.

كانت آنّا تدرك أن دوستويفسكي يتطرق هنا إلى صلب المسائل الدينية الأساسية، حول التسامح الرباني، عن الخطيئة الأولى، فحسب المشاعر والتعاليم المسيحية كان على الأم أن تسامح الجنرال المعذب.

وهنا يجيب المستمع الطيب، الحبيب ألكسي كارامازوف على سؤال إيفان. هل يجب إعدام القاتل؟ نعم يجب إعدامه..

ونظرت آنّا على زوجها، كان وجهه يرتجف متشنجاً، لكن في عينيه بريق احتفالي.

- فيديا - سألته آنّا بهدوء وخوف، - لماذا يبدو إيفان جذاباً بهذا الشكل، مع أن ألكسي هو العنصر المنير؟ ومع ذلك فلدى إيفان قوة، أية قوة...!

- لديه قوة داخلية وإيمان.. - صمت دوستويفسكي ثم قال بحزن

- هناك بعض السادة النقاد، الذين يؤكدون للقراء، بأن الشخصيات في روايتي تتحرك وتقوم بأفعال لا عقلانية، لكن لدي فكرة مسجلة للذ

عليهم: «إذا جرى كل شيء بعقلانية، فمعنى ذلك أنه لم يجر شيء». هذا هو بالضبط يا عزيزتي آنيا.

أحياناً كانت آنّا تبكي وهي تختزل الرواية. لقد كانت أماً فقدت طفلين من أطفالها، وها هو زوجها يقرأ فصولاً تتعلق بموت الولد الشبيه بألكسي.

عندئذٍ كان دوستويفسكي يتوقف عن إملائها، يقترب ويقبل رأسها.

لقد تأسفت آنّا غريغوريفنا، لأنها لم تستطع أن تسافر مع زوجها إلى موسكو إلى حفلة إزاحة الستار عن تمثال بوشكين في يوبيله.

ولقد كتب دوستويفسكي رسالة لزوجته في الثامن من حزيران عام 1880، وكان ما يزال تحت تأثير كلمته، التي ألقاها في جلسة جمعية هواة اللغة الروسية وآدابها، والتي شارك فيها إيفان سيرغيفيتش تورغينيف، وإيفان أكساكوف وغيرهم من الأدباء: «صباح هذا اليوم قرأت كلمتي عند «الهواة». كانت القاعة مليئة حتى الازدحام. أنت لا تستطيعين أن تتصور وتتخيلي التأثير الذي أحدثته كلمتي، إن نجاحاتي في بطرسبورغ تبدو هشة، صفراً - قياساً مع هذا النجاح».

وعرفت آنّا من خلال الصحف أن زوجها لم يبالغ في وصفه. فكلمته «البوشكينية»، التي تحدث فيها عن وحدة الناس في أرجاء العالم، وعن ضرورة أن يفهم المثقفون الركائز الشعبية، الحقيقة الشعبية، وعن الخضوع (اخضع يا مبتكر)، قوبلت بحرارة، حتى أنها أصبحت حدثاً. ولقد كتب غليب أوسبينسكي تعليقاً صحفياً مؤيداً لها في الصحف.

وبعد ذلك، انصبت المعارضات واستعرت المناقشات، عندما نشرت كلمته في «الاستمارات المسكوفية» وفي «يوميات كاتب».

لقد غدا دوستويفسكي في أيام يوبيل بوشكين من أشهر الكتاب المعروفين، ولم يعد أقل شهرة من تورغينيف.

لقد كللوه بإكليل الغار، وشكره عمدة مدينة موسكو تريتياكوف باسم المدينة.

وفي نفس تلك الليلة حمل دوستويفسكي الأكليل إلى شارع تفيرسكي، ووضعه عند أقدام تمثال بوشكين.

★★★

في 28 كانون ثاني (9 شباط) [1] 1881 توفي الكاتب الكبير فيودور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي. لقد غادر الحياة ذلك الزاهد الكبير، الذي لم يكن يقدس شيئاً أكثر من كلمة «روسيا»، والذي كان يؤمن بأن «سيادة الفكر والنور ستعيش لدينا نحن، وربما بشكل أفضل من أي مكان آخر».

لقد عاشت آنّا غريغوريفنا بقية حياتها الجديدة مخلصة لذكرى زوجها. لقد جمعت المواد عن حياته، وزارت الأماكن التي رافقته إليها، وأصدرت تاريخ حياته، وبعضاً من الرسائل المختارة، ومؤلفاته، وأخرجت جدولاً مفهرساً للمؤلفات واللوحات الفنية التي لها علاقة بحياة دوستويفسكي، وكتبت المذكرات، ونظمت غرفة ذكرى دوستويفسكي في المتحف التاريخي.

وافتتحت مدرسة باسمه في ستاريا روسّا، أما ابنتها الكاتبة لويوف (لوبا) - فيودوروفنا دوستويفسكايا فقد ذكرت في كتابها عن والدها

---

[1] 28 كانون الثاني حسب التقويم الروسي القديم يوافق (9 شباط) حسب التقويم المعاصر.

ما يلي: إنها أثناء قراءتها لرواية «الإخوة كارامازوف»، تعرفت بسهولة على طبوغرافية المدينة «وأن بيت العجوز كارامازوف، هو منزلنا الصيفي مع بعض التغيرات الطفيفة، وغروشينكا الجميلة - الشابة القروية التي عرفها والدي في ستاريا روسّا هي (غروشينكا مينشوفا - التي تزوجت سراً. وكانت على علاقة صداقة مع آنّا غريغوريفنا، وتتبادل معها الرسائل). أما بيتها فما زال قائماً في ستاريا روسّا. والتاجر بلوتنيكوف - كان المورد المحبوب من قبل والدي. أما أندريه وتيموفيه فهما الحوذيان الحبيبان اللذان كان يقلاّنا كل عام إلى شاطئ إيميلينيا، حيث كان يحل البرد في الخريف».

لقد ضحَّت أرملة الكاتب آنّا غريغوريفنا بألف روبل من أجل إعادة بناء المدرسة بعدما احترقت. بقيت المدرسة حتى عام 1941 عام الحرب فهدمها الهتلريون. وتضرر منزل الكاتب أيضاً. ثم أعيد بناؤه من جديد، مع الحفاظ على شكله وطرازه القديم. وبنيت هناك مدرسة موسيقية للأطفال.

وفي عام 1969 - أقيم متحف أثري صغير على أسس اجتماعية في «البيت تحت أشجار الدردار».

عام 1918- توفيت آنّا غريغوريفنا في يالطا، إذ لم تستطع العودة إلى موسكو لمشاهدة ولدها، لأن شبه جزيرة القرم كانت محتلة آنذاك من قبل الكايزر الألماني [1] والحرس الأبيض.

وكانت أمنيتها أن توارى في التراب قرب زوجها، حتى أنها كانت قد اشترت لنفسها مكاناً لقبرها في دير ألكسندروفسكي.

---

[1] الكايزر في الألمانية وفي اللغة اللاتينية – قيصر. هكذا كان يدعى إمبراطور «إمبراطورية روما المقدسة» من عام (962- 1806) وكذلك إمبراطور إمبراطورية المانيا (1871- 1918م).

# الفهرس

# من منشورات دار علاء الدين

- عودة الإنسان
  ............ف. م دستويفسكي
- ف. م. دوستوفسكي
  ............ليونيد غروسمان
- دوستويفسكي حياته أعماله
  ............هنري ترويا
- صفحات مجهولة من حياة تولستوي
  ............ك. لومونوف
- القصائد الشرقية
  ............الكسندر بوشكين
- الروح الشريرة
  ............ميخائيل ليرمنتوف
- مختارات من الشعر الروسي في القرن التاسع عشر
  ............مجموعة من الشعراء الروس
- بين هاويتين
  ............مارينا تسفيتايفا، فاليري بريوسوف
- رموز مقدسة
  ............نيقولاي ريريخ
- الشاعر - الإنسان
  ............رسول حمزاتوف
- ملحمة الزمن
  ............أناتولي سافرونوف
- أقسم أنه كان حيا ...
  ............[illegible]
- ذكراه في القلب والدة رائد الفضاء الأول تروي قصته
  ............آنا غاغارين
- النطع
  ............جينكيز إيتماتوف
- رفاق شقائق النعمان
  ............هنري ترويا
- النبيلة الروسية
  ............هنري ترويا
- مجد المهزومين
  ............هنري ترويا
- صوفيا أو نهاية المعارك
  ............هنري ترويا
- سيدات سيبيريا
  ............هنري ترويا
- ألوشا
  ............هنري ترويا
- ابنة الكاتب
  ............هنري ترويا
- محاكمة سقراط
  ............يوري فانكين
- التجربة الأخيرة
  ............يوليا إفانوفا
- تاييس الأثينية والإسكندر المقدوني
  ............أد إيفان يفريموف
- الأقصوصة السوفييتية المعاصرة
  ............د. ماجد علاء الدين
- مجموعة قصصية
  ............جينكيز إيتماتوف


محمد خطاب

В. ЖЕЛЕЗНЯК

# РАССКАЗЫ О ЖИЗНИ ДОСТОЕВСКОГО

لم يعرف الأدب العالمي بقديمه وحاضره، كاتباً فذاً تمكن من أن يغوص في أعماق النفس البشرية، كما كان الكاتب فيودور دوستويفسكي. إذ صوّر في رواياته الخالدة والمعروفة لدى القارئ العربي، مثل "الجريمة والعقاب"، "الأخوة كارامازوف"، "الأبله" وغيرها، طبيعة الإنسان وما يعاني في أعماقه من صراع حاد بين نزعات الخير والشر، والشهوات الجامحة، والمشاعر والأحاسيس المبهمة، والأفكار القلقة، وذلك بأسلوب فني فريد استقطب اهتمام القرّاء في مختلف أنحاء العالم.

في هذا الكتاب، يطلع القارئ إلى مجموعة من القصص التي تحيط بحياة دوستويفسكي، حيث اعتمد المؤلف من الوثائق مادة رئيسية في صياغة بعض هذه القصص، كما أتانا بشخصيات من الخيال، ربطها بسيرة حياة الكاتب.

وبالرغم أنه من الصعب جداً الإحاطة بأعماق شخصية الكاتب بمجموعة من القصص، إلا أن هذا الكتاب عكس لنا بعض الجوانب غير المعروفة في حياة هذا الكاتب العظيم.

ISBN 978-9933-18-819-1



يطلب الكتاب على العنوان التالي: دار علاء الدين - سورية - دمشق. ص.ب ٣٠٥٩٨ هـ ٥٦١٧٠٧١ ف ٥٦١٣٢٤١

البريد الإلكتروني ala-addin@mail.sy الموقع الإلكتروني www.zoyaala-addin.com